دكتورة منى حسين مؤنس

في بيت حسين مؤنس

دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهــداء

إلى روح أبى حسين مــــؤنس أول من علمنى وحببنى فى لغــة القرآن وإلى أمى التى كان لها فضل كبير فيما وصل إليه أبى رحمه الله .

منى

قبل أن تقرأ

عندما رحل الدكتور حسين مؤنس خسرت مصر أستاذًا وأديباً ومؤرخًا كبيرًا ليس من السهل نسيانه .. ولا تعويضه .. وانطفأت في مجلة « أكتوبر » صفحات مضيئة كانت تشع من روحه وأفكاره روحا مهمة لقرائه في العالم العربي كله ..

ولكني كنت أشعر أنه ذهب .. ولكن قطعة منه مازالت باقية .. لفحة من روحه .. نسمة من رحيقه .. ورقة في زهرته النضرة .. كنت أشعر أن ابنته الدكتورة منى هي جزء لا يتجزأ منه .. وتستطيع أن تملأ جزءا من الفراغ .. وتعزف جانبًا من اللحن العظيم ..

ولذلك طلبت إليها أن تخرج من حالة الحزن على رحيل الأب والأستاذ .. لتدخل في حالة توحد معه .. لتكون هي هو .. وتمتعنا ببعض ثمرات فكره التي نرى فيها امتدادًا له . وقلت

لها : لتكن البداية عن قصة حسين مؤنس ذاته .. وهى قصة غنية مليئة بالمشاعر والعمل والفكر .. فيها جانب الفكر .. وجانب الإنسان .. الزوج والأب . وقلت لها : قولى لنا كيف كان يعيش فى بيته .. لنعرف الجانب الآخر من شخصيته الذى لا يعرفه غيرك .

ولم تخيب الدكتورة منى رجائى .. وجاءت هذه الصفحات التى أرى فيها عملا من أجمل الأعمال الأدبية والإنسانية معًا .. جاءت بقلم أستاذة للأدب الانجليزى دارسة .. ويكفى أنها تتلمذت فى بيت حسين مؤنس .. وسأترك لك سطورها لتحكم بنفسك يا عزيزى القارئ .

رجب البنا

مقدّمة

باسم الله أبتدئ ، وبحوله أستعين ، وله الفضل والمنة سبحانه .

إذا تساءلنا من هو حسين مؤنس سنجد أن الجواب سيأتي في جزءين فأولهما الدكتور حسين مؤنس الشخصية العامة وهو أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكذلك الكاتب الصحفي المعروف ، ثم هناك أيضًا حسين مؤنس الزوج والأب والصديق والإنسان وهو الوجه الذي لا يعرفه إلا المقربون منه .

بالنسبة للشخصية العامة فلنقرأ ما يلي في « الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة » (١٩٨٩) الصادرة عن الهيئة العامة للاستعلامات في ص ١٢١ :

« حسين مؤنس محمود (حسين مؤنس) ولد في ٢٨ أغسطس ١٩١١ محافظة السويس ، حصل على ليسانس آداب (تاريخ) من جامعة القاهرة (فؤاد الأول – ١٩٣٤) ، ماجستير (١٩٣٧) دبلوم دراسات العصور الوسطى من جامعة باريس (١٩٣٨) ، دبلوم الدراسات التاريخية من مدرسة الدراسات العليا بجامعة باريس (١٩٣٩) ، دكتوراه الآداب من جامعة زيورخ (١٩٤٣) . عمل مدرسًا في معهد الأبحاث الخارجية بجامعة زيورخ (١٩٤٣ – ١٩٤٥) وعضو هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة

وتدرج فى سلك الوظائف الجامعية حتى عين أستاذًا فى التاريخ الإسلامى بالكلية (١٩٥٤) ، عين مديرًا عامًّا للثقافة بوزارة التربية والتعليم إلى جانب عمله بالجامعة (١٩٥٥/١٩٥٩) ، ثم مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد (١٩٥٩/١٩٦٩) ، ثم أستاذا ورئيس قسم التاريخ بجامعة الكويت (١٩٦٩/١٩٧٧) ، ثم رئيسا لتحرير مجلة الهلال وروايات الهلال وكتاب الهلال (١٩٧٧/١٩٨٠) ، ثم أستاذا غير متفرغ بآداب القاهرة وأستاذا زائرا فى جامعات بيل (بالولايات المتحدة الأمريكية) والرباط (المغرب) ولندن ، وكمبريدج ، ودرهام ، وسانت أندرو ، وإدنبرة ، وهامبورج ، وبون ، وتوبنجين ، وعضو المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وعين عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وعضو المجالس القومية المتخصصة ، وعين عضوا بالمجلس الأعلى للثقافة . أنشأ مشروع الألف كتاب وعين بالمجلس والمجلس الأعلى لرعاية الأداب والشعبة القومية لليونسكو . له العديد من الكتب المؤلفة والمترجمة العلمية منها : المشرق الإسلامى فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٣٨) ، رحلة الأندلس (القاهرة ١٩٦٤) ، ابن بطوطة ورحلاته (القاهرة ١٩٨٠) ، معالم تاريخ المغرب والأندلس (١٩٨٠) عالم المساجد (الكويت ١٩٨١) . ومن مؤلفاته المترجمة فى الأدب قصة الأندلس ، كتب وكتاب (جزءان ١٩٦٩) ، إدارة عموم الزير (مجموعة قصصية ١٩٧٤) أبو عوف (أربع روايات) (١٩٧٥) .

دفعه حبه للأدب إلى العمل في الصحافة الأدبية ، فنشر مقالات عربية في صحف البلاغ والأهرام والأخبار ومجلات الاثنين والمصور والهلال ومجلة أكتوبر ، ونتيجة لذلك كسب خبرة طويلة في العمل الصحفي وكتابة المقالات والقصة القصيرة والطويلة .
حصل على نيشان الجمهورية من الطبقة الثالثة ، ونيشان الفرنسو العالم من إسبانيا ، وأوسمة أخرى عديدة ، كما حصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر (١٩٨٦) » .

أما بالنسبة للوجه الآخر للدكتور حسين مؤنس ، وهو الزوج والأب والصديق والإنسان ، فهذا ما يحتويه هذا الكتاب الذى سميته « في بيت حسين مؤنس » .

أذكر أنني في أول حديث عن هذا الكتاب مع الأستاذ رجب البنا — رئيس تحرير مجلة أكتوبر — وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو ١٩٩٦ تكلمنا عن بعض مقالات عنه قد يزيد عددها لتصبح كتابًا ، وقد تتوقف عند كونها بضعة مقالات فقط . كان الموضوع جديدًا بالنسبة لى وكان يشعرنى بقليل من الخوف من شيئين :

أولهما : أننى قد أضطر في هذه الكتابات إلى التعرض لبعض المقربين إلينا وكثير من الناس يحبون الاحتفاظ بخصوصياتهم لأنفسهم .

أما الشيء الآخر الذى كان يخيفنى ، فهو إننى ربما لا أعطى حسين مؤنس الإنسان حقه كاملا ، فكل إنسان أيا كانت مكانته أكبر وأثرى من أى شيء يكتب عنه لاسيما وأن أبى كانت له

علاقات وثيقة بكثير من الناس الذين أردت أن يتعرفوا على مدى صدق ما أكتبه عنه بخصوص تلك العلاقات . وسريعًا ما اختفت هذه المخاوف ولا أستطيع أن أنكر أن الفضل فى ذلك يرجع إلى الأستاذ رجب البنا ، فوجدت نفسى متحمسة للموضوع ، وكأنه كان موجودًا منتظرًا أن يفرغ مكتوبًا على ورق ، ولم أدر بذلك إلا عندما بدأته .

وقبل أن أكتب فى الموضوع فكرت كثيرًا كيف أتناوله ، وكيف أنظم أحداث حياة طويلة وثرية مثل ماكانت حياة أبى ، وبالذات أننى كنت أفكر فيما كان يتدفق علىّ من أحداث وكلام وصور لا أعرف كيف أتناولها وأصوغها حتى تصبح واضحة أمام القارئ ، وحتى يصبح من السهل تتبعها والتعرف على أبى من خلالها . ورويدًا رويدًا بدأت تتخذ هذه الأفكار والصور والحكايات نظاما معيّنا وهو النظام التى ظهرت به فى مجلة أكتوبر ، إذ تتبعت طريقة تيار الوعى ، أى تركت ذاكرتى تعمل بحيث أن كل حكاية أو صورة أو رأى يستدعى من تلقاء نفسه الحكاية أو الصورة أو الفكرة التى تتبعها .

وقد يلاحظ القارئ أن كل ما تحدثت عنه ظهر على شكل تسلسل فكرى واحد مستمر يربط ما بين أول مشهد فى المذكرات إلى آخر مشهد فيها . وحرصت في ذلك على أن تظهر كل حكاية وفكرة وصورة لناحية من نواحى أبى التى لا يعرفها الناس عموما إلا المقربين منه .

وأعترف أننى تعبت فى كتابة هذه المذكرات ، لأن أشياء كثيرة

فى حياة الإنسان تمر عليها الأحداث بحيث تكاد تصبح منسية تماما ، ويتطلب إحياؤها تركيزًا شديدًا ومستمرا حتى تسترجع مضبوطة بدون إضافات أو زخرفة خيالية . إننى فى بضع مرات لجأت إلى الدكتور محمود على مكى – وهو صديق قديم للأسرة مدّ الله فى عمره وأعطاه الصحة – لكى أتأكد من بعض التواريخ . ثم لجأت مرارًا لأمى حتى أتأكد من بعض تفاصيل حياة أبى التى لم أدركها أنا فى حينها لصغر سنى وقتها . وتحاشيت بقدر الإمكان ذكر أسماء بعض الشخصيات وإن كانت المواقف والأحداث توضح من هم .

ثم أضفت فى آخر المذكرات نموذجا من خط أبى وقائمة ببلوغرافية بجميع مؤلفات أبى التى ذكرتها فى هذا الكتاب وهى بطبيعة الحال ليست مؤلفاته كلها

وأرجو أن يكون الله تعالى وفقنى فى إظهار صورة حسين مؤنس الإنسان والأب والزوج والصديق كما ينبغى ..

وأخيرًا أتقدم بالشكر لأسرة دار المعارف ولكل من ساهم فى إخراج هذا الكتاب .

القاهرة فى ١٢ يناير ١٩٩٧

د . منى حسين مؤنس
أستاذ مساعد بقسم اللغة الإنجليزية
كلية الآداب – جامعة القاهرة



دكتور حسين مؤنس مع زوجته السويسرية .

في بيت حسين مؤنس

— أين نخلة الموز ؟

— أي موز ؟ وأي نخلة ؟

— النخلة التي قلت لي : إنها أمام شباك غرفة النوم وأنه من الممكن إن أمد يدي وأقطف موزة .

كان هذا أول ما قالته « العروس الأجنبية » التي جاء بها حسين مؤنس رأسا من أوربا . إنه أمضى هناك سنوات كثيرة يحضر رسالته للدكتوراه ما بين فرنسا وسويسرا ولم يتعرف على عروسه إلا في آخر سنة قبل رجوعه إلى مصر . تعرّف عليها في إحدى محاضرات الموسيقى الكلاسيكية في جامعة زيوريخ بسويسرا حيث كان — في أوقات فراغه — يحضر محاضرات الموسيقى التي ظل يحبها إلى آخر أيامه . وكانت هي في السنة الأولى بالجامعة تدرس الموسيقى الأوربية وكانت أتمت الدراسة بالكنسرفوتوار وتجيد العزف على آلتي البيانو والأكورديون . كانت جميلة جدا وصغيرة من أسرة سويسرية محافظة ، وكانت تبدو أصغر من سنها . أما هو فكان يكبرها بأكثر من عشر سنوات ، وكان يبدو أكبر من سنه .

رآها وتعرف عليها وأكّد لنا بعد ذلك أنه أحبها من أول لحظة . واستمر يحضر هذه المحاضرات الإضافية ، وكان ذلك فرصة لكي يزداد التعارف بينهما .

وحدث أن ميعاد عودته لمصر قد قرب فقرر أن يتزوجها .. طلب مقابلة أهلها إذ عرف أنها موافقة مبدئيا . وعندما قابل أهلها صدم بنوع من الرفض .. فكيف تتزوج ابنتهم السويسرية من رجل مصرى ؟ إن ما يفرق بين سويسرا ومصر ليس فقط مسافة البعد ، بل هناك مسافة ثقافية وفكرية وتاريخية ، ثم هناك أيضًا فارق السن بينهما . وقد يكون من المهم أن نضيف أننا عندما نذكر كلمة العنصرية نتذكر على الفور الفرق بين الشرق والغرب ، وننسى عادة أن هناك عنصرية بداخل أوربا نفسها . وفيما يخص تقييم البلاد الأوربية فيما بين بعضها والبعض ، نجد أن السويسريين يؤمنون بأنهم أحسن شعوب القارة الأوربية ، لذلك عندما تقدم هذا الرجل المصرى طالبا ابنتهم كانت دهشتهم كبيرة ؛ وخوفهم أكبر !

وبعد بضع مقابلات وبعد كلام كثير أعجبوا بشخصيته وكلامه ، ولكنهم ظلوا خائفين على ابنتهم ومصيرها مع الرجل المصرى . فاتفقوا على أن يرجع إلى مصر بدون أن يرتبط بابنتهم ثم يعود بعد إتمام سنة حتى يتأكد الجميع أن الموضوع ذو جدية حقيقية ، وحتى يبدأ هو عمله فى جامعة القاهرة ويشعر بنوع من الاستقرار . فمكثت هى فى سويسرا وعاد هو إلى مصر .

* * *

ومضت سنة كانا يتراسلان خلالها . ثم وفى هو بوعده وعاد إلى سويسرا ، ووفى أهلها بدورهم بوعدهم . فتزوجا . وأخذت هي الجنسية المصرية . وتتذكر جيدًا أنها – عندما قدمت للسلطات السويسرية الأوراق التى تثبت تغيير جنسيتها – لم يصدقوا ما يحدث وسألوها إن كانت مدركة لما تفعله ، فقالت نعم . وقالوا هل تتركين فعلا جنسيتك السويسرية ؟ وهل تعلمين فعلا أين أنت ذاهبة ؟ قالت نعم . ولم يكن فى تقديرها إلا أنها تريد أن تمضى باقى حياتها مع هذا الرجل أينما كان .

وغادرا زيوريخ بالقطار حتى مرسيليا ، ومن هناك أخذا الباخرة حتى بورسعيد ، ثم استقلا القطار إلى القاهرة . وفى القاهرة ذهبا إلى منزل فى شارع الأخشيد بجزيرة الروضة حيث أنشآ معًا بيت حسين مؤنس . وكان ذلك منذ أكثر من أربعين عامًا .

وعندما وصلا إلى البيت إذا به مليئًا بالأقارب ، حضروا ليرحبوا بهما . وكان ذلك فى ساعة متأخرة من الليل والعروس متعبة جدًّا ، فالسفر كان طويلا وإجراءات الجمارك المعقدة أدت إلى أن يتأخر وصولهما إلى المنزل ساعات طوالا ، وفهمت العروس بعد ذلك بوقت طويل أنهم قدموا ليرحبوا بهما غير أن هذا لم يكن السبب الوحيد ، إنما كانوا أيضا ينتظرون الهدايا .. ولم تكن تعرف فى هذا الوقت أنه كان من العادة – بل من الواجب – أن يجىء القادم من السفر بهدية لكل قريب . وهى لم تأت بشىء

لأنها لم تكن تعلم هذا التقليد . أما أبى فكان قد نسى موضوع الهدايا تماما . وكانت هذه هى عادته التى لازمته طوال حياته : حتى نحن أبناءه كنا نعلم صفة النسيان بسبب اشتغال فكره بأشياء أهم من أمر الهدايا ، فكنا نسجل له كتابةً فى عدد من الأوراق ما نحن بحاجة إليه حتى نذكره بما نريد حتى يحضره لنا . ومع ذلك كثيرًا ما كان ينسى ما نطلبه ، فإذا عاتبناه قال إن كل شىء يمكن أن يشترى حيث نقيم ، بغير أن يفطن إلى أن هدية القادم من السفر لها طعمها الخاص . لم يكن سلوكه هذا عن تقتير أو استكثار لما نطلب ، فالحقيقة أننا إذا كلفناه بإحضار دواء لازم لأحد أو كتاب مهم ، فإنه لا ينسى ذلك أبدًا . أما ما جرت به العادة من إحضار تذكارات فإنه لم يكن يرى فى ذلك شيئًا مهما لا غنى عنه .

* * *

وكانت أمى تتحدث الألمانية وتجيد الفرنسية .. ولكنها لم تعرف كلمة عربية واحدة .. وكان يعيش معهما فى نفس البيت جدتى — وهى لا تتكلم إلا العربية — ثم عمتاى وكانت إحداهما تدرس بكلية الآداب والأخرى لم تحصل على شهادة الثانوية بعد . وأدى تعايش أمى داخل هذا المحيط المصرى مع أفراد عائلة أبى إلى أن تتعلم اللغة العربية . وهكذا حدث فتعلمتها وأصبحت تجيد الكلام

بها فيما بعد . وبقيت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة السائدة فى هذا البيت سواء أكانا مقيمين فى مصر أو فى سفر خارج البلاد . وأضفى توحد اللغة هذا على البيت سمة مميزة . وكثيرًا ما كانت أمى على مرور الزمن تلتقى بأناس مصريين يحاولون التحدث إليها بلغة أجنبية ظنًا منهم أن ذلك سيجعل الحوار أسهل بالنسبة لها ، إلا أنها كانت ترد دائما بالعربية حتى تثبت لهم ، أنها تجيدها وأنها أصبحت لغتها الجارية .

ومن طرائف السنة الأولى للزواج — على سبيل المثال — أن أمى كانت تخشى أكل اللحوم إذ قيل لها فى سويسرا إنهم فى مصر يأكلون الفئران فعندما كانت ترى فى طبقها قطعًا من اللحم تتصور أنها أجزاء من فئران فلا تستطيع أن تأكلها . غير أنها أدركت بعد فترة قصيرة خطأ ذلك التصور واعتادت أكل ما يقدم إليها مطمئنة إليه .

كانت هناك سيدات من أقارب العائلة يلاحظن أنها نحيفة ويعتبرن ذلك عيبًا فى المرأة ولا يدركن أن تلك النحافة تعد من سمات الجمال فى أوربا . فكن ينصحنها بالاستكثار من أكل ما يساعدها على زيادة الوزن مثل سد الحنك . وفى إحدى المناسبات نصحتها إحدى السيدات بأن تضع على « الكومودينو » إلى جانب سريرها « بطاطة » وكوبًا من اللبن ، وأن تأكل وتشرب منهما ، كلما استيقظت أثناء الليل . وأرشدتها سيدة أخرى إلى أن تصلى كثيرا

حتى يستجيب لها الله سبحانه وتعالى حتى يزيد جسمها امتلاء .
ولم تقتنع أمي بهذه النصائح فكانت تستمع إليها وتقول « حاضر يا طنط » وظلت على حالها رشيقة طوال عمرها ، فكانت قد نشأت وتربت على فكرة أن الرشاقة هى أساس الصحة ، ثم إنها سمة من سمات الجمال فى المرأة . أما الأقارب المصريات فكن يرين الجمال فى السمنة التى كانت أيضا بالنسبة لهن دالة على الانتماء إلى طبقة اجتماعية مرفهة أما النحافة فإنها كانت دليلا على الجوع والفقر .

ثم طرأت فى البيت فكرة إسلام أمى ، وأبدت هى موافقتها على ذلك ، ولكنها لم تكن تتكلم اللغة العربية إلا قليلا . كانت تفهم بعض الكلام ولكنها لا تستطيع تركيب جمل كاملة . فحفظها أبى الشهادة . ثم جاء اليوم الذى كانت ستشهر فيه إسلامها . وكان من المقرر أن يتم ذلك فى الأزهر الشريف ، فذهب كل من أبى وأمى وجدتى وشاهدان فى الميعاد المحدد ، وكانت أمى تكرر عبارة الشهادة بينها وبين نفسها حتى لا تخطئ فيها . ووصلوا إلى المكان المحدد وبدأ شيخ أزهرى يتكلم باللغة العربية الفصحى . وبطبيعة الحال لم تفهم أمى كلمة واحدة مما قال ، وكان كل همها — حسب كلامها — فى تذكر الشهادة فى الوقت الذى كان عليها أن تدلى فيه بتلك العبارة . وجاءت اللحظة المهمة ولكن أمى لم تعلم بها إذ أنها لم تفهم كلمة واحدة مما قاله هذا الشيخ الأزهرى فلاحظت أن أبى يشير إليها بهدوء فانطلقت

بالشهادة وبهذا تم إسلامها . وعندما سألتها بعد ذلك بسنوات : ما الذى جعلك تسلمين فى هذا الوقت المبكر من الزواج ؟ فقالت : إننى كنت سأسلم فى يوم ما فأنا أؤمن بأن الرب واحد بالنسبة لجميع الأديان والفارق الوحيد بين الأديان ، عموما هى طريقة العبادة ، فجميع الأديان جيدة مادام الإنسان نفسه جيدا ومؤمنًا .

وفكرة أن دين الإنسان مسألة شخصية ترجع لكل فرد على حدة كانت من سمات بيتنا ، فالدين لم يكن أبدًا من موضوعات مناقشاتنا . فقد عرفنا ناسًا كثيرين ولم يخطر ببالنا أبدًا أن نسألهم إلى أى دين ينتمون . فنحن عشنا فى إسبانيا أكثر من عشر سنوات ، وكان معظم أصدقائنا ومعارفنا من الإسبان ، وكان كل ما يهمنا هو الشخص ذاته ، أما دينه أو حالته الاجتماعية أو المالية أو ميوله السياسية ، فهذه كلها كانت أشياء لا تحتل مكانا من تفكيرنا أو اهتمامنا .

وجاء أول رمضان تقضيه أمى فى البيت فى مصر ، وكانت الأسرة كلها تؤدى هذا الفرض ، وكذلك صامت أمى . ولكنها كانت كلما شعرت بجوع حاد دخلت إلى غرفتها وأكلت قطعة من الشيكولاته ، فلم تكن تعلم أن ذلك يخالف تعاليم الإسلام . وكان لديهم فى البيت خادمة صغيرة السن لاحظت أن « الست الصغيرة » كثيرًا ما تدخل غرفتها خلال النهار بدون مبرر واضح .

فذهبت الفتاة ونظرت من ثقب الباب واكتشفت ما يحدث . فذهبت إلى « الست الكبيرة » – وهى جدتى – وقالت لها ما يحدث ، وعولجت الأمور بهدوء إذ أفهموا أمى جميع متطلبات شهر رمضان الكريم .

* * *

كان أبى طوال عمره رجلا مشغولا بعمله ، لأن مسئولياته كانت دائما كثيرة . وكان ذلك هو وضعه فى السنة الأولى من زواجه فلم يكونوا يرونه فى البيت إلا وقت الغداء ثم فى المساء . وكان قد تعوّد منذ ذلك الحين أن يفرغ نفسه تماما يوما واحدًا فى الأسبوع ، وهو فى العادة بعد ظهر يوم الخميس ، فكان فى هذا اليوم يخرج مع العائلة وغالبا ما يذهبون إلى السينما فى وسط البلد ثم يتناولون الشاى والحلويات فى أحد الأماكن العامة ثم يعودون للبيت . وحسب ما سمعت بعد ذلك كانت هذه عادة متبعة فى كثير من البيوت المصرية . المهم فى هذا الأمر أن أبى استمر بهذه العادة حتى بعد سفره من مصر إلى الخارج . ففى إسبانيا كان اليوم الذى يقضيه مع أمى خارج البيت هو يوم السبت ، ولم يقبل أى ميعاد أو ارتباط فى هذا اليوم أبدًا فكان يرى أن هذا اليوم من حق أمى عليه ويجب أن يخرج فيه معها . أما ما عدا هذا اليوم فكان دائما مشغولا بالقراءة أو الكتابة أو الحديث مع أحد فى أمور العمل ، فهو لم يعتبر هذا العمل واجبًا فحسب ، بل كان يجد فيه متعة حقيقية .

ومرت سنة كاملة على الزواج ولم تحمل أمي ، وفي الحقيقة فهي لم تفكر في هذا الموضوع إذ أنه كان سيأتي في يوم من الأيام بطبيعة الأمر . فبدأ بعض أقارب العائلة يتحدثون معها في هذا الموضوع ويقولون لها « يجب أن تشدى حيلك وتخلفى حتى لا يتركك زوجك » . فكان هذا طبعا كلاما غريبا عليها تماما ولم تفهمه بمنطقها الأوربى . وحدث أنها حملت بعد ذلك وأنجبت وعند تسميتها قالت أمي إن ما يهمها في أمر تسمية ابنتها هو أن يختاروا لها اسما يعجبها تعرف أن تنطقه . فبعد كلام كثير استقر الاسم على « منى » . وكان بيت أبى قد انتقل خلال هذه الفترة من شارع الإخشيد بالروضه إلى ميدان الروضة إذ كانوا في حاجة إلى شقة أوسع تمكن أبى من أن يكون له فيها غرفة مكتب .

وانتقل بيت أبى من مكان إلى مكان آخر عدة مرات إذ نقل إلى العاصمة الإسبانية - مدريد - حيث عمل مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية منذ منتصف الخمسينيات إلى أواخر الستينيات . ثم انتقل البيت مرة أخرى من أسبانيا إلى الكويت حيث عمل أستاذاً للتاريخ الإسلامى في جامعة الكويت إلى منتصف السبعينيات . ثم انتقل البيت مرة أخرى إلى القاهرة ، وعمل بعد عودته إلى مصر رئيسا لتحرير مجلة الهلال ورواية الهلال وكتاب الهلال ؛ ثم أنشئت مجلة أكتوبر حيث انضم لأسرتها منذ ١٩٨٠ ، وكان يعمل في نفس الوقت أستاذا غير متفرغ في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة حتى وفاته في ١٧ مارس ١٩٩٦ .

والسمة أو السمات التى أعطت بيته دائما وحدته هى اجتماع أفراد العائلة أى هو وأمى وأنا وأخى صفوان رحمه الله — ثم الطابع المصرى فى عاداته بالإضافة إلى لغة الحوار التى كانت دائما اللغة العربية ثم كانت هناك دائما لمسة لا أعرف كيف أصفها .. تضفيها أمى على البيت ..

* * *

وعندما سألت أمى بعد سنين طويلة هل كانت سعيدة خلال سنة زواجها الأولى . أجابت بأنها كانت عموما سنة جميلة مليئة بما هو جديد عليها ، وأنها مرت بخير وفى سلام ، لأنها كانت دائما ترضى بكل شىء فنادرًا ما تحتج أو ترفض شيئًا فأهم ما كان يدور ببالها هو أن ينجح زواجها ، وأن تستمر مع الرجل الذى أحبته .. ثم إنها كانت ترى وتشعر أن وجودها أصبح مهما بالنسبة له ، وأنه كان يقوم بكل ما يمكن أن يرضيها ويريحها ؛ وكان أبى فى الحقيقة يظهر لها اهتمامه بها دائما ، وكان — على سبيل المثال — عندما يدخل أى مكان توجد فيه أمى كان يسلم عليها قبل أن يسلم على الغرباء . وكثيرا ما كان يقول خلال حياته : إنه لو كان وصل إلى شىء فى عمله فبعض الفضل فى ذلك يرجع إلى أمى ، فمن أجلها حاول دائما أن يرفع من شأن نفسه حتى لا تشعر هى أبدا بأنها نادمة على ترك بلدها سويسرا ، أما باقى الفضل فيرجع إلى حبه لمصر .

وكان أبى يحتل بالنسبة لأمى المقام الأول فى حياتها وبعد أبى كنا نأتى نحن أولادها ، فكانت تهتم براحته وملابسه ومواعيده وتذكره بما قد ينساه — وبطبيعة الحال — ساعده ذلك كثيرًا فى أن يتقدم فى قراءاته وكتاباته ، إذ كان يرى لديه زوجة يثق فيها ويطمئن إليها ويعتمد عليها ويحس بأنها هى التى تمنح حياته جوًّا من الطمأنينة والاستقرار ، وكان دائما يشكرها على ذلك ولا يتقبله على أنه أمر واقع . وأنا هنا لا أصطنع علاقة رومانسية بين أبى وأمى ، بل إننى أتحدث عن وقائع شاهدتها وشاهدها كل من تعرف عليهما وعاملهما .

وقد يتساءل البعض ألم تكن تقع خلافات فى مثل هذه الزيجة ؟ والرد هو أنه طبعا كانت تقع خلافات ، ولكنها أشياء عابرة لا توقف استمرار العلاقة . فعلى سبيل المثال لم يتذكر أبى مرة واحدة فى حياته يوم عيد ميلاد أمى ولا يوم زواجهما . وكانت أمى كل سنة تغضب من نسيانه هذا ولم تتقبله أبدا غير أن هذا الغضب كان عارضا لا يدوم ، إذ أنه دائما كان يعتذر لها عن ذلك السهو .

وكانت هناك خلافات بالنسبة للنفقات . فكانت أمى لا تبخل بأى شىء يزيد من جمال بيتها ، وكان هو دائما يرى أنها تبالغ فى ذلك . وأعتقد أنه بمرور الزمن اقتنع بأنها على حق ، فأصبح يفرح عندما كان يراها مهتمة بالمكان ومظهره .

وكانت تنشأ خلافات أيضًا بسبب إنفاق أمى على ملابسها

بشكل كان يراه هو مبالغا فيه . ولكنها كانت طول عمرها تهتم بمظهرها كثيرًا وتحب الملابِس الجميلة الهادئة وتحب أن يجاملها الناس على مظهرها . ولست أذكر أنني مرة فى حياتى رأيت أمى وهى ترتدى ملبسًا لا يتميز بالأناقة ، أو كان شعرها غير مُسَرح : لم يحدث هذا أبدًا فى أى وقت من النهار .

ثم إن أبى عندما كنت أسأله عن أهم صفة يفضلها فى المرأة ، فكان يجيب « أن تكون جميلة ، فيجب على الرجل أن يرى أمامه شيئًا يعجبه . وبعد الجمال يأتى الحنان ، فيجب أن تكون امرأة كاملة الأناقة والأنوثة فى مظهرها وفى كيانها » . وعندما كنت أسأله عن جمال روح المرأة كان ينظر إلى ويبتسم ويقول : « إنه من الصعب أن توجد روح جميلة فى امرأة عندما تشعر وتعرف أن مظهرها غير مقبول » .

وعندما كان النقاش يثور فى المسائل المالية كانت تقول له : « شوف ، أنت لذتك فى قراءاتك وكتاباتك أما أنا فلذتى فى بيتى وملابسى » . وهذه كانت حقيقة فلم يكن لأمى مجموعة صديقات تزورهن ويزرنها ، ولم تكن تتغيب عن البيت إلا لأمر مهم ، فحياتها كلها كانت مكرسة لزوجها أولا ثم لأولادها وبيتها ، ومن المؤكد أن ذلك كان يريحه كثيرا . وقد استمر هذا الوضع طوال زواجهما سواء كانا فى مصر أو فى أسبانيا أو فى الكويت وهى البلدان الثلاثة التى قضينا فيها معظم سنوات حياتنا .

وهناك مصدر خلافات آخر .. ربما كان الطعام .. فقد كان

هو يحب الطعام المصرى ، وكانت هى تحب الأطباق الأوروبية ، فهى لا تأكل البامية ولا القلقاس ولا الحمام (كيف يأكل إنسان الحمام ؟ كان شيئا لا تفهمه) . وبعض المأكولات المصرية الأخرى ، ومع ذلك فقد تأكل بعض هذه الألوان لكى ترضيه . فاتفقنا على أن بعض أيام الأسبوع يكون الأكل فيه أوروبيا وبعضه الآخر يكون مصريا .

وفيما يخص الأكل عموما فلم يكن أبى تهما فى الطعام فكان إفطاره خفيفا يحتوى على عصير فاكهة ثم بسكوت ثم شاى يحليه بالعسل . ثم وجبة الغداء كانت دائما كاملة إذ كانت وجبة أكله الأساسية ، أما العشاء فكان دائما خفيفا وبه دائما فاكهة ما .

ولم تكن أمى بطبيعتها تحب الطهى ، فخلال فترات طويلة من حياتنا كان لدينا من يقوم بالطهى فى البيت ، وفى فترات أخرى كانت تطبخ هى وتقوم بالواجب من هذه الناحية ، فقد كانت تعتبر المطبخ واجبا بالنسبة لها ولم تمض فيه أى وقت غير الوقت المطلوب ، فالقيام بالواجب ، والشعور بالمسئولية صفتان متأصلتان لدى الشعب السويسرى ، وكانت أمى ملتزمة بهما إلى حد بعيد فلم تخل بواجب أبدًا ولا تعرف تأجيل ما يجب عليها عمله أو تجنبه . فالواجب ينبغى أن يتم وبإتقان . كانت — ومازالت — هذه هى طريقتها فى الحياة فهى لا تعرف الكسل ، وليس لديها مزاج متقلب ، فمن الممكن الاعتماد عليها تماما ، إذ كل شىء

يتم حسب جدول أعمال تضعه هى لنفسها ولا تدع لإنسان أن يتدخل فيه .

هناك صفة أخرى فى أمى كان أبى يقدرها جدًّا وهى أنها لا تعرف الكذب أبدا فلا تقول إلا الحقيقة وكانت تحكى له كل صغيرة وكبيرة تحدث فى البيت . وكانت هذه الصراحة تساعده لكى يتصرف فى شئون البيت وبالذات فى الفترات الصعبة التى قد تطرأ فيها مشكلات . فكانت الصورة دائما أمامه واضحة ، وكان يعلم تماما أنه ليس هناك ما تخفيه عنه .

هذه الخلافات لا أتذكر أنها كانت تطول ، فكانت من النوع العابر ، أى أنها كانت لا تتسبب فى أزمات حقيقية والحمد لله . كان الاثنان قد اتفقا فى بداية حياتهما معا ألا يبيتا على خلاف أبدًا ، فكان يجب أن يتم الصلح بينهما قبل نهاية النهار ، وكان غالبا يقدم هو عليه . وكانت هذه هى طريقته معى ومع أخى أيضا ، فعندما كان يقع خلاف بينه وبين أحدنا كان غالبا هو الذى يأتى « لنناقش الموضوع » ونصل لاتفاق يريح الطرفين .

أتذكر بهذه المناسبة على سبيل المثال أننا كنا فى أسبانيا وكانت سنى حوالى أربعة عشر عاما وكنت تلميذة بالمدرسة الألمانية . وحدث أن بدأت بعض زميلاتى يرتدين الجوارب « النايلون » بدلا من الجوارب القصيرة المخصصة للمدارس ، فلاحظت ذلك وعدت مرة إلى البيت وقلت لأمى إننى أريد أنا الأخرى أن أرتدى

الجورب النسائي الشفاف . فاندهشت وقالت إن ذلك لن يحدث قبل سن السادسة عشرة على الأقل ، فعُرض الموضوع على أبى فانزعج جدًّا وقال : إنني مازلت صغيرة وإنه يحب ألا أفكر فى شىء إلا المذاكرة وأن ذلك لن يتم إلا بعد إنهاء التعليم المدرسى !!

وكنت حينذاك فى أشد التعاسة ، فأنا لم أفكر فى الجورب الشفاف فقط ، بل كنت أفكر أيضًا فى الذهاب إلى « الكوافير » واستعمال أحمر الشفاه . وكانت اقتراحاتى هذه تغضبه غضبًا شديدًا ويذكرنى فى هذه الأوقات وأثناء مناقشاتنا الطويلة بأننا مصريون وأننا نختلف فى عاداتنا وتقاليدنا عن الأوربيين ويجب أن أنظر إلى مستقبلى وإلى مذاكرتى وأن أنسى هذه التفاهات حتى أستمر بأخلاق مصرية جميلة ، وأتذكر أن أمى لم تتدخل فى مثل هذه المواضيع أبدًا ، فرأى أبى كان هو الصحيح دائما بالنسبة لها . وبعد مناقشات طويلة وافق على ارتدائى الجورب النسائى وأنا فى سن الخامسة عشرة ولكنه — فى نفس الوقت — بدأ يراقبنى أكثر ولا يتساهل فى أى طلب أطلبه ، وكان شديدًا جدًّا فى تربيته ، وكانت شدة لاحظها كل من حولنا .

وكنت أندهش وأتألم جدًّا لهذه الشدة بالذات عندما كنت أتذكر أن نفس هذا الأب كان — وأنا طفلة — يقوم من مكتبه وينزل ليتنزه معى فى الشارع ويشجعنى على قراءة كل ما هو مكتوب على اللافتات ، وهو أيضًا الذى كان يحكى لى قصة قبل نومى ، وكانت قصصًا مسلسلة من تأليفه فكان يؤلفها وهو جالس

على طرف السرير ، وكان هو نفس الأب الذى كان يجبرنى بطريقة غير مباشرة على القيام بما لا أحبه . فكنا مثلا مرة مسافرين على باخرة إلى أمريكا . وكانت أمى تعانى من دوار البحر وأنا لا أريد أن أنام مبكرًا حتى أريحها . فكان هو يأخذنى عند محرك الباخرة ويقول :

— هل تسمعين هذا الصوت ؟ (وكان دوى الماكينات ضخمًا مفزعًا)

— نعم . أسمعه .

— هذا صوت سبع كبير وهو الآن غاضب لأنه يعلم أن بعض الأطفال لم يناموا حتى الآن . فلو استمروا على عدم النوم فى ميعادهم فسوف يشتد غضبه وسوف يخرج من قفصه هذا ليعاقبهم .

ومنذ ذلك اليوم بدأت أنام فى ميعاد مبكر ولكن قبل نومى كان يجب على أبى أن يذهب معى حيث يوجد « الأسد » ونسلم عليه حتى لا يغضب . وبعد انتهاء الرحلة وبعد مرور بعض الوقت عليها كنت كثيرا أسأله : « يا ترى ما أخبار « الأسد » ؟ كان يرد ويقول : « إنه أحيانا يتصل بى بالتليفون ويقول إنه على ما يرام . ويسلم عليك ويقول إنه يتابع أخبارك عن بعد وأنه مسرور منك » .

ذكريات أندلسية

استمرت هذه الشدة في التربية عدة سنوات ، وكانت تصيبني وتصيب أخي أيضًا ، ولكنها كانت معه أقل ثم زالت بالتدريج . وأظن أن أبي كان لا يريد أن نتأثر بالثقافة الأوروبية إلا بما يمكن أن ينفعنا منها . أما العادات والتقاليد والسلوك والمنطق فكان يريد كل ذلك مصريا . وأظن أن شدته في تربيتنا خفت حينما أدرك أن ما أراد أن يغرسه فينا – أنا وأخي – قد أثمر . والطريف في هذا كله أن أمي لم تتدخل أبدا في تربيته لنا ، فكانت تؤمن بأن ما يفعله هو السلوك الصحيح .

أما الأشياء الأخرى التي جعلت بيتنا بيتا مصريا في أسبانيا ، فهو أننا كنا نصلي ونصوم رمضان ونحتفل بالأعياد الدينية والقومية ، ثم أننا – أنا وأخي – كنا نتلقى دروسًا خصوصية في اللغة العربية مرتين في الأسبوع . وكان يعطينا هذه الدروس طلاب مصريون أو عرب ممن كانوا يحضرون رسائل لنيل درجة الدكتوراه . وأتذكر أننا كنا نجلس معًا أمام « الأستاذ » أو « الأستاذة » وبينما كان أحدنا يقرأ بصوت عال ثم يستمع إلى الدرس كان الآخر يحل التمرينات وكان يستغرق ذلك عموما ثلاث ساعات تقريبًا في كل مرة . وإلى جانب ذلك كان أبي دائما يجد وقتا لكي يجلس مع



أبي وأمي مع الأستاذ محمد حسنين هيكل وحرمه
عند زيارتهما لأسبانيا في الستينيات .

كل واحد منا على حدة ، لنقرأ معه نصوصًا عربية ، وأتذكر أن أغلبها كان من كتب طه حسين أو العقاد أو شعرا جاهليا أو آيات قرآنية .

ثم مضت السنون وغادرنا أسبانيا التي أحببناها جدًا والتى كان لنا فيها كثير من الأصدقاء تسمع عن أخبار بعضهم حتى اليوم . أما بالنسبة لأبي فكانت الأيام التى أمضاها فى أسبانيا أجمل أيام حياته على ما أظن .

وكانت نتيجة طريقته في تربيتنا أننى بمرور الزمن أصبحت لا أتصرف فى الغالب إلا بالرجوع إلى رأيه . وعلمتنى التجربة أنه لم يكن فى باله أبدا أن يفرض رأيه ليثبت قوته ، فقد أدركت حقيقة أنه كشخصية أكبر من ذلك وأن قوته تنبع من ذاته لا من سلطته كأب ، لذلك كان الكثيرون يلجئون إليه للمشورة فكان يُشعر من أمامه دائما بثقة فى نفسه وفى الدنيا ، وهذه الصفات تطورت فيه بمرور الزمن ، ولذلك ترك وراءه فراغًا رهيبًا عندما توفى . فوجوده كان بالنسبة لمن عاشره ومن عرفه بمثابة الأمان والاستقرار والحلم بغد أجمل لأنه كان بطبيعته متفائلا جدًا .

* * *

كانت حياتنا فى البيت دائما منظمة وكان يرجع ذلك إلى أمى . فمواعيد الإفطار ووجبتا الغداء والعشاء كانتا دائما هى هى لا تتغير إلا عند انتقالنا من بلد إلى بلد . فكان أبى يستيقظ دائما مبكرا

فى الصباح وفى نفس الميعاد . ثم كان يجمع الأسرة ميعاد وجبة الغداء وكنا دائما تجتمع فيها . وكان للمائدة دائما احترامها فنبدأ الأكل معا . وكانت أمى تغرف الأكل في الأطباق ودائما تبدأ بطبق أبى فكما قلت من قبل كان يرحمه الله أهم ما فى حياتها .

وكان بعد تناوله كل وجبة من الوجبات ينزل إلى الشارع ليمشى نصف ساعة وكانت هذه نصيحة أعطاها له طبيب صديق فى أسبانيا واستمر طوال عمره ينزل لكى يمشي نصف ساعة ثلاث مرات فى اليوم وكانت أهمية ذلك المشى أن عمله كان يتطلب منه الجلوس إلى مكتبه ساعات طويلة متصلة . وحتى بعد عودتنا نهائيا إلى مصر -- وكان ذلك فى منتصف السبعينيات -- وجد أنه من الصعب المشى فى الشوارع فى القاهرة بسبب عدم أمان الأرصفة فكان يتمشى داخل البيت .

وأظن أن انتظام استيقاظه فى نفس الميعاد وانتظام مواعيد الأكل بالذات هى من العناصر التى ساعدته فى عمله كثيرا حتى استطاع أن ينتج هذا الكم الهائل من الكتب فى مجال تخصصه -- وهو التاريخ الإسلامى -- ومئات المقالات للصحف والمجلات ، وكذلك ما كان يكتبه من قصص أدبية . ويرجع الفضل فى هذا الانتظام إلى أمى .

وكان ميعاد وقت الغداء هذا من أفضل الأوقات التى كنا نمضيها معا كعائلة ، إذ كنا نتبادل الأخبار والملاحظات والآراء

وكنا نشعر أننا كيان واحد . وفيما عدا ذلك كان أبى دائما مشغولا بعمله قارئا أو كاتبا .

وعندما كنا أطفالا أنا وأخي كنا طول وقت وجبة الغداء مثلا نتلقى توجيهاته إذ لا يفوته شيء . فنسمع طول الوقت ملاحظات مثل :

— امسك السكين بالطريقة الصحيحة .

— لا تتكلم وفمك ملىء بالأكل .

— أفرد ظهرك على ظهر الكرسى .

— لا تقم عن المائدة إلا عندما ينتهى الجميع من أكلهم .

كان يوجه سلوكنا بصفة مستمرة ليس فقط فى البيت بل فى الشارع وفى أى مكان حتى انتظمت هذه المبادئ السلوكية بالتدريج ، فلم تعد هناك حاجة لتلك التوجيهات التى لم تقتصر علينا فقط ، بل كان يوجهها أحيانًا إلى الغرباء إذا رآهم يتصرفون بطريقة خاطئة ، والطريف أنهم كانوا دائما يتقبلون توجيهاته ، كانت السمة التوجيهية فيه تظهر دائما من أول مدرجات الجامعة إلى من حوله فى مجال العمل وفى مقالاته ، كما ظهر هذا بوضوح فى المقالات التى كتبها لمجلة أكتوبر والتى بدأت تنشر بانتظام منذ عام ١٩٨٠ . وأتذكر أن كثيرًا من مقالاته فى مجلة أكتوبر على وجه التحديد جاءت برد الفعل الذى كان ينتظره ، والأمثلة كثيرة لا مجال هنا لذكرها . وكانت هذه السمة التوجيهية تظهر

أيضًا في قصصه القصيرة وكتاباته الأدبية الأخرى إذ كانت كلها ذات طابع إرشادى خلقى . أما عن مؤلفاته في تخصصه فكانت تمتاز بالدقة العلمية الشديدة ، وكان بذلك يقدم نموذجا لما كان يريد أن يكون العمل العلمى عليه . فسمة الأستاذ الجامعى ، والمعلم ، والموجه كانت ظاهرة في جميع نواحى حياته . وكانت الفروق بين ما هو صحيح وما هو خطأ دائما واضحة أمامه ولا يعرف التسامح فيها .

كان بيتنا عموما يتسم بالهدوء والصمت . فكان أبى يعمل فى البيت بعد الظهر وكان عمله القراءة والكتابة . فكان يجلس إلى مكتبه ساعات طويلة لا يمل أبدًا . وكانت أمى أيضًا تقرأ . وأما أنا فحين كنت صغيرة لم أكن أفهم ما هى القراءة ولا ما الذى يقومان به . فكنت أفتح أى كتاب وأنظر فى صفحاته لعلّ به شيئا يظهر بعد التدقيق فيه ولكن لم يحدث طبعا شىء من هذا القبيل . فكنت ألعب وغالبا ما كنت أصنع مراكب من الورق وألعب بها إما فى الحوض وإما فى طشت الغسيل بالحمام . ولأننى لم أفهم قيمة الكتب والكتابة كنت أحيانًا آخذ صفحات من كتاب موجود فى مكتبة أبى أو جزءًا من مقال كان يكتبه وأصنع منه أسطول المراكب الذى سألعب به ، وكان أبى يغضب حقا ويلومنى على ذلك كثيرا ، ففهمت أن هذا الورق المطبوع مهم وذات قيمة . ثم بدأت أمى تعلمنى الحروف وكان أبى يفعل ذلك أيضًا أحيانًا ، فتعلمت فك رموز الكتابة قبل دخولى المدرسة بمدة .

وعند خروجنا للشارع بدأت أقرأ الإعلانات وأسماء المحلات وكانوا يكافئوننى على ذلك ، وبالتدريج انفتحت أمامى عوالم جديدة لم أكن أتصور أنها موجودة وحدث ذلك عن طريق القراءة ، ويرجع الفضل فى هذا الكشف إلى كل من أبى وأمى ثم أصبحت القراءة — وبالذات بعد دخول المدرسة — عادة أقوم بها كل يوم حتى أصبح من الصعب التخلص منها . وتابعنى أخى على نفس العاده وأصبح أكثر شغفا منى بالقراءة ، ويرجع فضل ذلك إلى الأبوين ووجود مكتبة بالمنزل واحترام الكتاب ، فالكتب فى بيتنا كانت تعامل بعناية وتوضع فى مكان آمن وتنظف ولا يكتب فيها إلا بالقلم الرصاص لو لزم الأمر ذلك .

* * *

والقراءة حقيقة شىء جميل ، ولكن لو دخلت بيتا ووجدته كل يوم من أيام الأسبوع صامتا لأن صاحبه يقرأ ويكتب فلابد أن تشعر الزوجة بالمعاناة من هذا الوضع ، إذ يكون الزوج دائما معها جسديًا ولكنه منهمك فى عمله روحيا . ومثل هذا الرجل يحتاج إلى نوع معيّن من الزيجات فلا أتصور أن أى امرأة تستطيع أن تتقبل ذلك . أما فى بيتنا فقد كان أبى يمضى طول عمر زواجه على هذا المنوال جالسًا كل يوم ساعات طويلة مشغولا بعمله ، غير أن أمى تكيفت فى هذا الجو وتعلمت كيف تملأ وقت فراغها دون أن تسبب له أى إزعاج .

وبسبب عمله هذا كانت حياة أبى الاجتماعية محدودة جدًّا فلم يجد وقتاً لذلك . فعلى سبيل المثال لم أره أبدًا يخرج لمقابلة صديق أو يستقبل صديقا لتمضية بعض الوقت إلا لو كان بينهما عمل ما . ولم أره يطيل المكالمة بالتليفون أو يذهب إلى أحد النوادى أو ينضم إلى شلة أصدقاء يسهر معهم . فحياته كانت فعلا كلها عملا ثم عملا ثم عملا . وكان هذا العمل المستمر بالنسبة له هو لذته الحقيقية فى الحياة ومتعته . وكان عادة يتوقف عن العمل فى الثامنة مساء ولايعمل ليلا أبدًا .

وكان طول عمره يكتب بقلم حبر ثم تحول إلى الفولوماستير عندما اخترع ولم يستعمل — على ما أظن — الأقلام الجافة وذلك يرجع إلى ضعف بصره بحكم عكوفه المستمر على القراءة والكتابة . وعندما كان يؤلف كتابا كان عادة يكتبه فى كشاكيل ويرقمها ، أما المقالات فكان يكتبها على ورق فولسكاب وكان يعلم تماما المساحة التى سيغطيها ما يكتبه فى الجريدة أو المجلة التى يكتب لها .

* * *

وبسبب انشغاله الذهنى المستمر كان نومه قلقًا فيصعب عليه جدًّا أن ينام ليلا .

ومن أسعد لحظات حياته هى دخول ناشر إليه وفى يده نسخة من الطبعة الأولى لآخر ما ألفه كانت فرحته حينئذ لا توصف .

وكان كل كتاب يقدمه فيه الجديد فى المضمون أو فى المنهج أو طريقة العرض . ثم كان له أسلوب خاص جذاب يصعب على قارئه أن يترك كتابا له أو مقالا قبل أن يتم قراءته للنهاية ذلك لأن الله سبحانه وتعالى منحه موهبة الكتابة التى كانت تنبع من قلمه سهلة شائقة من قلبه . مع غزارة مؤلفاته التى تجاوز عددها سبعين كتابا .

ورغم اشتغاله الدائم بقراءاته وكتاباته فلم ينس أبى أمى أبدًا ، إذ استمر طول حياته يخصص لها يوما يخرجان فيه وحدهما ويبعدان عن العمل . وكان هذا اليوم هو ظهيرة أيام السبت فى أسبانيا وأيام الجمعة بالكويت ، وفى هذه الأيام لا يفتح أبى موضوع عمله فكان هذا اتفاقا بينهما . أما عندما عادا إلى القاهرة فى السبعينيات فلم يجدا مكانا يذهبان إليه يوم خروجهما فلم تكن هناك دار سينما محترمة ولا مسرح ، فأصبحا يخرجان لتناول الغداء بالخارج حتى تدخلت ظروف أبى الصحية ، ولم يستطع أن يواصل هذه العادة .

أما بالنسبة للأسرة بأكملها فكنا — أثناء وجودنا فى أسبانيا — نقوم برحلات فى الصيف نتجول خلالها فى البلاد الأوربية . وكنا نسافر بالسيارة ويقودها سائق . وكان أبى يعشق السفر فلم يترك — على سبيل المثال — شبرا من أسبانيا لم نزره وبالذات منطقة الأندلس فى جنوب البلاد . فقد زرنا مرارًا قرطبة وغرناطة وأشبيلية ومالقة وغيرها من المدن الأندلسية ، وكان هو يعتبر هذه المنطقة

بالذات بمثابة الجنة فكان يعشقها عشقا . وذهبنا كذلك إلى شمال أسبانيا وغربها والبرتغال والمغرب وتونس ثم فرنسا وإيطاليا وسويسرا . وكانت هذه الرحلات تستغرق شهر أغسطس بأكمله ، ولم نترك مدينة مهمة لم نتوقف فيها ولا يفوتنا أثر تاريخي لا نتوقف عنده . وكان لدى أبي الكثير يحكيه عما نراه . وكانت هذه الرحلات وبالذات لأنها كانت تتم بالسيارة تمثل بالنسبة لنا جميعًا متعة لا توصف . وأحيانًا كانت الرحلة قصيرة فكانت تقتصر على قرطبة وغرناطة ثم قضاء أسبوعين في قرية ساحلية ، وكانت غالبا مربلاً قرب مالقة أو المنكب قرب المرية . وكانت كلها عطلات جميلة جدًا ، وكنا نقوم بها لأن أبي كان دائما منفتحا وباحثا عمًّا هو جديد ليس في الكتب فحسب ، بل في دنيا الواقع أيضا . وبطبيعة الحال وبطبيعة عمله ولأنه كان محبوبا لشخصه ومكانته ، فقد كان كثير السفر وحده إلى مؤتمرات ، وكان دائما يطلب من أمي أن ترافقه إلا أنها كانت دائما تفضل البقاء في البيت ، لأنها بطبيعتها تتفادى بقدر الإمكان السفر بالطائرة . ويهيأ إليّ أن أمي كانت دائما في انتظار أبي سواء عائدا من سفر أو عائدًا من العمل أو عائدًا من مهمة . وكان دائما يبتهج عندما يراها . وعندما سألتها مؤخرا لو كانت فعلا تنتظره دائما أجابت بقولها : « نعم ، هذا صحيح والفارق الآن أنه هو الذى ينتظرنى » .

وبعد عودة أبي وأمي نهائيا إلى مصر حدث أن اضطرتنى الظروف إلى أن أعود وأعيش معهما في نفس البيت . وكان ذلك

بضع سنوات قبل وفاته . ووجدت حينئذ أن العلاقة بينهما قد تطورت لدرجة أنهما كانا متفاهمين أحيانا بدون كلام . فكان هو — كعادته طول عمره — يجلس إلى مكتبه يقرأ أو يكتب وكانت هي تجلس إلى مائدة السفرة قريبة منه تقرأ أيضا فأفاجأ بأنها تقول له « ايوه ، حالا ! » وكأنها كانت تشعر بطلبه قبل أن يقوله فتأتي به . وكان ذلك يحدث كثيرا جدا وأظن أن هذا يحدث في أي زيجة طويلة الأمد بين اثنين وفق كل منهما في اختيار شريكه في الحياة .

* * *

إن جميع البيوت تمر عليها أحداث سارة وأحداث محزنة . ومن الأحداث المحزنة التي مرت على بيتنا هو حادث أخي صفوان الذي توفي إثر حادث أليم ومفاجئ وهو في منتصف العشرينات من عمره . كان طبيبا وحديث التخرج في كلية طب القاهرة ، وأتذكر أن أول من علم بموت أخي كان أبي فكان أول من عاد إلى البيت في ظهر ذلك اليوم وكانوا قد اتصلوا به في دار الهلال وطلبوا أن يجيء للبيت لأمر مهم . فبطبيعة الحال ترك كل شيء وعاد ولم ينتظر أمي التي كان من عادتها أن تمر عليه ظهرا بالسيارة حتى يعودا معا إلى البيت كما كانت عادته . فلم يعلم ما الذي قد حدث ورجع إلى البيت فورًا فرأى ابنه جسدًا هامدًا . وأتذكر أنني كنت عند عمتي في ذلك اليوم ، إذ ذهبت لزيارتها بعد



أبي وأمي مع السفير المصرى أحمد أنور وحرمه فى أسبانيا فى الستينات .

انتهاء عملي وكان ذلك في ٧ يوليو ١٩٨٠ . واتصل بي أبي هناك ورفعت سماعة التليفون ولم أتعرف على صوته في بداية الأمر فقال لي « مني — صفوان مات » . إنني لم أستوعب ما قاله فأعاد نفس الجملة . فعدت فورًا إلى البيت ووجدت ما هو من الصعب جدًا وصفه فكان حزن أبي وأمي كبيرا حتى إنه كان يبدو مسيطرا على المكان كله . وكانت هذه المرة هي المرة الأولى التي رأيت فيها أبي يبكي دموعا حزينة جدا ومرّة للغاية . وقد لا يستطيع فهم ما عشناه كأسرة في تلك الأيام إلا من مرّ بتجربة مماثلة .

واتخذت كل الإجراءات الرسمية اللازمة ومرّت الأيام الأربعة التالية للوفاة في حالة من الوجوم من الصعب وصفها و — بطبيعة الحال — كان حولنا ناس كثيرون يشاركوننا حزننا ولكن بعد بضعة أيام راح كل واحد لسبيله وبقينا وحدنا بحزننا كما جرت العادة في هذه المناسبات ، فكثير من الناس لا يدركون مدى حاجة من يكون في مثل حالتنا إلى المواساة على مدى أيام كثيرة بل ربما أسابيع بعد أيام العزاء المعتادة حتى يستعيدوا قوتهم ويعودوا إلى مسيرة الحياة اليومية . ولكننا كنا وحيدين والحزن يحيطنا مثل الضباب الذي يحجب الرؤية أو الحائط العالي الذي من الصعب تسلقه .

متاعب على الحدود الليبية !

في تلك الأيام خفت فقدان كل من أبي وأمي فكانا في حالة حزن عميق وكان حادث موت أخي من الطبيعي أن يؤثر فيهما إلى هذا الحد . ومرت الأيام بطيئة لا طعم لها ولا معنى ، فالحزن العميق بمثابة المرض : له آلامه وأعراضه التي تعزل الإنسان عن سير الحياة الطبيعية ، وكان كل من أبي وأمي قليل الكلام ويزيد هذا من أعراض الحزن والألم . وفي الحقيقة خفت عليهما . وبالتدريج تقبلا الأمر الواقع على أنه إرادة ربنا سبحانه وتعالى ، وقرر أبي أنه يجب علينا الابتعاد عن القاهرة حتى نرى الأمور بوضوح أكبر . وحدث أننا ذهبنا إلى الإسكندرية . ولكنها كانت فترة في غاية الصعوبة واجتازها أبي وأمي بشجاعة وبإيمان واضحين . ومرة أخرى صح ما يقال عن أن البعد عن الشيء يوضح الرؤية ، إذ أن المشاعر دائما مرتبطة بأماكن محددة وتصبح — بالوقت — جزءا لا يتجزأ منها ، والقوة الجبارة التي يكتسبها الإنسان في إيمانه بالله هي القادرة على أن يعود الإنسان إلى نفس المكان ، ويضيف إليه تجارب أخرى مصطحبة بمشاعر جديدة تجعل من التجربة الأليمة ماضيا يعيش في كيانه ، فالماضي دائما موجود معنا ومن الصعب تجنبه ، ولكن يجب تجاوزه حتى

تستكمل مسيرة الحياة . وهذا كان رأى أبى ، وهكذا تجاوزنا هذه التجربة الأليمة .

وبعد عودتنا من الإسكندرية تغلبنا على حزننا ودخلنا مرة أخرى في سير الحياة اليومية . واستمر أبى وأمى يزوران أخى فى قبره كل يوم خميس لمدة عشر سنوات حيث كانا يسمعان تلاوة آيات من القرآن الكريم وبعد ساعة أو ساعتين كانا يعودان إلى البيت . واستمر هذا الوضع حتى بدأ أبى يشكو من ركبتيه اللتين بدأتا تؤلمانه عند المشى . وكنت كثيرًا ما أرافقهما فى زيارة مدافن الأسرة هذه ، ولكنني كنت أحيانا أعتذر عن عدم مرافقتهما . ومنذ أن وقع حادث أخى ساد كلا من أبى وأمى لون من الحزن لازمهما حتى وفاة أبى مؤخرا ومازال يلازم أمى حتى اليوم المهم أن أبى رغم كارثة موت أخى قد استكمل مسيرته فى الحياة ويرجع ذلك إلى إيمانه القوى وتعمقه فى الدين ، ثم إنه عرف كيف يفصل بين حزنه الشخصى وبين واجباته فى الحياة . ففى سنة ١٩٨٠ التحق بالكتابة فى مجلة أكتوبر حيث كان يكتب مقالات تُعَد من أجمل ما قرأته أنا فى فن المقالة الأدبية بالعربية . ثم أنهى كتابه « أطلس تاريخ الإسلام (١٩٨٧) الشهير وأتم نشره ، وأنهى أيضا كتابه عن سيرة الرسول محمد ﷺ وكتابات أخرى كثيرة . فتقبل موت أخى بفضل إيمانه القوى ، ولم يفرض حزنه على أحد أبدا لأن أخى رحمه الله — رغم وفاته — استمر يعيش داخل قلب كل من أبى وأمى فكيف ينسى أبوان فقدا أبنا

لهما ؟ هذا — بطبيعة الحال — مستحيل فلا يعوض فقدان الابن شيء في الدنيا .

من الأشياء المحزنة الأخرى التى مرت على أبى قبل ذلك كانت نكسة ١٩٦٧ . وكنا فى أسبانيا وكنا دائما نتابع أخبار مصر فى الصحف الأجنبية والمصرية والإذاعات وعن طريق سؤال القادمين من مصر . فطوال مدة وجودنا فى أسبانيا كانت مصر من أهم المواضيع والمحاور فى حياتنا . أتذكر كيف فوجئ أبى وأمى بحرب ١٩٦٧ . وتذكر أمى أنها عندما سمعت ببداية الحرب فتحت أطلسا لكى ترى فيه بالضبط موقع إسرائيل والبلاد العربية التى تحاربها على الخريطة ، واطمأنت عندما رأت أحجام البلاد المختلفة على الخريطة . وعندما حدثت النكسة كان خيبة أملها واندهاشها عظيمين .

وأذكر كيف جمع هذا الحادث المؤلم بين جميع المصريين فى مدريد ، أى أعضاء السفارة المصرية وأعضاء معهد الدراسات الإسلامية ، وكانوا كلهم متوحدين ويعايشون الأحداث التى تقع فى مصر ومنطقة الشرق الأوسط كلها خطوة خطوة ، وكانوا كلهم فى دهشة وتعجب وخوف . وكانت الأخبار التى تسمع من خارج البلاد تظهر أكبر حجما وأبشع فظاعة . أتذكر أنه منذ نكسة ١٩٦٧ بدأ أبى يرتدى ربطة عنق سوداء ولم يخلعها إلا بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣ فقد كانت مصر — كما كان يردد دائما —

مرتبطة بنبض دمه . وكان كثيرا ما يحكى لنا أنه لم يتخصص فى تاريخ مصر أيام إعداده لنيل درجة الدكتوراه بسبب حبه لوطنه . وذلك لأنه كان يخشى أن هذا الحب كان يؤدى ألا يكتب عنها بطريقة موضوعية حيادية وأنه لذلك اختار التخصص فى التاريخ الإسلامى وبالذات فى تاريخ الأندلس . والحق أنه كان دائما فيما يخص كتاباته التاريخية موضوعيا بقدر المستطاع إذ كان دائما يعرض جميع نواحى الموضوع الذى كان يتناوله ، وكان يرجع لمختلف المصادر حتى يصبح ما يكتبه فى التاريخ دائما كلاما علميا يُعتمد عليه . وكان كثير المراجعة لمؤلفاته التاريخية .

أما كتابته لمقالات مجلة أكتوبر فكان يتخذ لها طريقة أخرى : كان يخصص لمقالة أكتوبر يوم الجمعة من كل أسبوع . وكان يبدأ بعد الإفطار مباشرة . ويبدو لى أن المقال كان جاهزا فى ذهنه فى الصباح ، إذ كان يكتب بدون انقطاع وكان ينهيه قبل ميعاد الغذاء بقليل . وكان يتوقف لأداء صلاة الجمعة التى كان يصليها ظهرا دائما فى البيت ثم يستأنف الكتابة بعد ذلك . ثم كنا نتناول الغذاء خارج البيت . أما بعد ظهر نفس اليوم فكان يقرأ المقال مرة واحدة بغير أن يدخل فيه أى تغيير ولم يكن يعيد كتابته أبدا ، فكان المقال يخرج فى قلمه منضبطا من المرة الأولى سواء من ناحية الأفكار التى يتضمنها أو الشكل الذى يصدر به . ثم كان يجمع الأوراق ويطويها ويضعها فى ظرف أبيض ويكتب عليه « مجلة أكتوبر — مع التحية » ثم يمضى .

أقول إن القارئ سوف يلاحظ أن أبى كان يؤيد دائما رئيس مصر أيا كان مادام كان خط عمله متفقا مع صالح البلاد . ولا يرجع ذلك أبدا إلى أى نوع من المجاملة ، فلم يكن ذلك من صفاته . لقد كان دائما يحترم نفسه ويحفظ لقلمه كرامته ، ويشهد بذلك كل من عرفه ولكننى أعتقد أنه كان يؤمن فى إخلاص بأن الرئيس قدوة مهمة ومادام وجده الشعب قويا عرف إلى أين يتجه وفى من يثق . فكان أبى مؤمنا بأن إصلاح الحال أمر ضرورى من أجل التقدم والترقى والتحسن ولكنه كان يؤمن بإصلاح ما هو موجود وكان عدو فكرة الهدم ثم إعادة البناء .

وعندما ننظر إلى هذه المقالات التى كتبها لمجلة أكتوبر عبر ستة عشر عاما بمعدل مقال أسبوعى فى مجموعها تمثل تاريخ مصر الاجتماعى لمدة ست عشرة سنة ، فهى تتناول جميع الموضوعات التى اجتذبت اهتمام المجتمع المصرى بدءا بالمشاكل اليومية إلى مواضيع تمس مختلف الشئون الحكومية إلى مجالات الفن المختلفة إلى الشخصيات الأدبية فى مجتمعنا ، فكان رحمه الله يحس بنبض حياة مجتمعنا ويعبر عنه بأسلوب يشد كل من يقرأه . وكثيرا ما كنت أقابل أناسا من قرائه يقولون لى : « إن أباك قال فى مقالته الأخيرة ما كان على طرف لسانى ولا أجد الكلمات المناسبة لأعبر عنه » .

وكانت مقالاته فى مجلة أكتوبر بمثابة ضمير الأمة ، وكان عادة يعرض المشكلة ويناقشها ثم يقترح حلولا لها . فكانت أفكاره تمثل حلولا لمشاكل اجتماعية كثيرة وتفتيحا لطرق ورؤى جديدة ، وكان يساعده على ذلك علمه الموسوعى وحبه لوطنه . وكان دائما مفكرا فعالا ومشاركا برأيه ، وكان قد اختير لذلك عضوا فى كثير من المجالس القومية الحكومية التى تناقش وتكوّن مستقبل مصر .

والمواضيع التى كان يطرقها كانت تمس أساسا مشاكل مصر الاجتماعية ، ثم كان يربط ما بين الماضى والحاضر فى المواضيع التى كان يكتبها عن تاريخ مصر المعاصر والتاريخ الإسلامى والدين الإسلامى ، وكانت فكرة أن معرفة الماضى معرفة متعمقة تساعد بدون شك على السير أو التوجه نحو مستقبل أفضل وتشهد مقالاته فى أكتوبر على ذلك .

أتذكر أنه عندما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان أبى يعمل أستاذا بجامعة الكويت وكان أخى طالبا فى كلية الطب بجامعة القاهرة وكنت أنا قد تخرجت فى نفس السنة فى قسم اللغة الإنجليزية فى جامعة الكويت وكنت فى القاهرة أيضا ولم أعيّن بعد للعمل . وأتى أبى وأمى من الكويت لحضور جلسة قضية مهمة فى محكمة ما فى القاهرة وكانا منشغلين بها . وجاءنا ضيف

صديق فى البيت يوم ٦ أكتوبر بعد الظهر وسأل إن كنا سمعنا عن بداية الحرب ولم نكن قد علمنا شيئا عن ذلك ، لأنها كانت حربا فاجأت الجميع وبدأت فى ميعاد غير تقليدى أى فى الثانية ظهرا . وأخرت الحرب عودة أهلى إلى الكويت وذلك لأن المطارات قد أوقفت عملها العادى . فاضطرا أن يسافرا بسيارة أجرة « بيجو » بالنفر عن طريق ليبيا . فركبا السيارة مع ثلاثة آخرين من بينهم سيدة يوغوسلافية وبدأوا الرحلة بعد الظهر . كان من المقرر أن يصلا إلى الكويت عن طريق بنغازى بليبيا بالسيارة ثم من بنغازى إلى اليونان بالطائرة ثم من اليونان إلى الكويت بطائرة أخرى . واستوقفت السلطات المصرية سيارة الأجرة هذه أكثر من مرة فى الطريق الصحراوى إذ كان هذا الطريق مليئا بالجنود . ومرة من هذه المرات لم توافق السلطات المصرية أن تكمل السيارة رحلتها إذ كانت فى السيارة تلك السيدة اليوغسلافية التى شكّوا فى أمرها . فحدث كلام كثير وبدأت السيدة تبكى إذ كانت تخشى أن يتركوها وحدها مع الجنود المصريين فى الطريق الصحراوى . وتدخل أبى بشهامته المعتادة فى الموضوع وقال إذا لم يتركوا السيدة الأجنبية هذه تستكمل السفر معهم فسيظل جميع من فى السيارة معها . وكان ذلك فى ساعة متأخرة من الليل والمكان صحراوى وخالٍ تمامًا . كان من عادة أبى دائما أن يدافع عن الضعيف أيا كان هذا الضعيف . وكثر الكلام وتدخل فى الموضوع كل

الموجودين بآرائهم . واستمرت تلك السيدة في البكاء وأمي تواسيها . وأخيرًا وافقت السلطات المصرية على أن يكملوا كلهم السفر وبالذات بعد أن تعرفوا على شخصية أبي فكان من بين الجنود من قرأ له في وقت من الأوقات . وعندما دخلوا حدود ليبيا عن طريق السلوم تعرضوا لتفتيش « وحشى » لحقائبهم إذ تركت حقائب الركاب الخمسة مفتوحة وملقاة على الأرض . وعندما طلبوا أن يساعدهم أحد في حمل الحقائب رفض الليبيون ذلك قائلين « نحن لا نحمل حقائب مصريين » .

ويرجع ذلك التصرف الليبي بطبيعة الحال إلى أن علاقات مصر السياسية بليبيا لم تكن على ما يرام في هذه الفترة ، فتصرفت السلطات الليبية على الحدود بمقتضى ذلك الوضع السياسي الرسمي . وتذكر أمي أنها انزعجت ولكنها كانت – في نفس الوقت – قد تعودت على التصرف الانفعالي التلقائي الذي هو من سمات الشخصية العربية . ومن الطريف هنا أنه بعد هذا الحادث ببضع سنوات أتت إلى أبي سيدة ليبية لكي تسجل معه رسالة لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ . وكانت محترمة جدًا وتعمل بجدية . وبعد أن ناقشت رسالتها عينت مديرة مكتب الرئيس القذافي في ليبيا . وبناءً على مثل هذه التجارب – وهي كثيرة العدد – تعلمت أمي تقبل شخصية العرب المتقلبة وفهمتهم وأحبت الكثيرين منهم .

المهم ، بعد الرحلة المتعبة من القاهرة لبنغازي بات أبي وأمي

فى ليبيا فى فندق قابلا فيه مصريين آخرين . وكانوا جميعًا يحاولون أن يعرفوا أخبار الحرب ، وفوجئوا بأن أخبار حرب مصر لم تذع فى الإذاعة الليبية إلا بكلمات قليلة وسطحية فى آخر النشرة .

وبعد يومين تقريبا وصل أبى وأمى إلى الكويت ودخلا البيت بشارع بغداد بحى السالمية بعد منتصف الليل ، ولم يكد باقى سكان العمارة يعلمون بوصولهما — وكانوا كلهم أساتذة فى الجامعة وأغلبهم مصريون — حتى استيقظوا وذهبوا إليهما يسألونهما عن أخبار مصر وكانوا جميعًا يسمعون أخبارًا جيدة فى الإذاعة ولا يصدقونها ، وذلك لأن انتصار أكتوبر ٧٣ كان مدهشًا ومذهلا وعظيما ومفاجأة سارة : كان الرئيس السادات قد نبه عن طريق الصحف والإذاعة فى عام ١٩٧٢ أنها ستكون سنة حاسمة وأنه سوف يهاجم إسرائيل . وأتذكر أن عام ٧٢ مضى كله بدون أن تُعلن أى حرب وكنا ننتظرها — أى الحرب — حتى ٣١ ديسمبر ، وفى صباح أول عام ٧٣ ظننا جميعًا أن الجيش المصرى ربما لم يكن مستعدًا لمثل هذه الحرب . لذلك عندما وقعت بالفعل شعرنا جميعًا بفخر واستعادة كرامتنا ، وكان وقوعها مفاجأة كبيرة . خلع أبى فى هذا الوقت ربطة العنق السوداء التى كان قد بدأ ارتداءها بعد نكسة ١٩٦٧ .

تتذكر أمى أنه حدث فى مرة أنها هى وأبى كانا عائدين من

الكويت لقضاء العطلة الصيفية في مصر . وكان على أبي أن يمر على لبنان لعمل ما يتعلق بنشر كتاب له . فحجزا تذاكر على طائرة سودانية كانت ستنقلهما من الكويت للبنان ثم - بعد يوم - من لبنان إلى القاهرة . وقرب بيروت تعطل محرك الطائرة السودانية . فأنزلوا الركاب في فندق وقالوا لهم إنهم سيظلون في هذا الفندق على حساب شركة الطيران السودانية حتى يتم إصلاح الطائرة . وقضوا ثلاثة أيام تقريبا في هذا الفندق والطائرة لم تصلح .

كانت إقامتهما - حسب كلام أمي - في فندق « نص - نص » وكانوا يحضرون في مطعم الفندق منضدة طويلة لكي يجلس عليها ركاب الطائرة ، وكان الطعام المقدم كل يوم عبارة عن صينية كبيرة توضع في نصف المائدة وبها « مكرونة سباجيتي » ويغرف منها كل راكب لنفسه . وإلى جانب ذلك كانوا يقدمون خبزا و « سلطة » فقط . حدث ذلك كل يوم لمدة ثلاثة أيام ، فألحّ أبي على العاملين بالشركة حتى يعرف حقيقة العطل ولماذا لا يأتون بطائرة أخرى فقالوا له إنه ليس بالسودان إلا طائرتان فقط : واحدة منهما يستعملها رئيس الجمهورية أما الثانية فهي تمثل الخطوط الجوية السودانية وتخصص للركاب والرحلات ، ولذلك فليس هناك مفر من انتظار إصلاح عطل الطائرة . وعندما علمت أمي بذلك رفضت تماما أن تسافر على هذه الطائرة لأنها

لم تضمن سلامتها واضطر أبى إلى أن يحجز تذكرتين على خطوط جوية أخرى .

إن أمى خلال فترة زواجها من أبى لم تتعرف على مصر والمصريين وطبيعتهم فحسب بل تعرفت أيضا على أناس كثيرين من بلدان عربية أخرى ، ويرجع ذلك أساسا إلى انشغال أبى فى تخصصه الذى كان يجعله يخالط عربًا يشاركونه التخصص وكان بينه وبينهم اتصالات وعلاقات عمل . ثم ساعد على ذلك أيضا إقامتهما فى دولة الكويت التى تجمع جميع الجنسيات العربية . وأذكر أنهما حكيا لى قصة وصولهما من أسبانيا رأسا إلى الكويت وهما بلدان يختلف كل منهما عن الآخر فى كل شىء . كانا قد سافرا إلى الكويت وحدهما إذ كنا أنا وأخى لا نزال نستكمل دراستنا فى أماكن أخرى .



أبي مع ياسر عرفات وأسرة مجلة أكتوبر .

أيام فى الكويت !

وحسب كلام أمى - أنهما وصلا إلى مطار الكويت ليلا وعندما نزلا من سلم الطائرة لاحظا أن المكان فى وسط الصحراء الواسعة والجو رطب وبه رائحة البترول ثم سمعا اللهجة الكويتية وكانت لهجة عربية من الصعب فهمها فى البداية . وكان فى انتظارهما عدد من الأساتذة الجامعيين المصريين العاملين بالكويت ممن كانوا يعرفونهما من زمن طويل .

ثم انتقلا بسيارة إلى السكن الذى خصصته لهما الجامعة بحى السالمية . وشد انتباههما الشوارع العريضة والدوارات الكثيرة التى عرفت بها الكويت ثم السكون الكامل . كان عالما غريبا ليس بينه وبين أسبانيا أى صفة مشتركة .

وذكرت أمى أنها كثيرا ما كانت ، تبكى فى بداية إقامتها فى الكويت لأنها كانت تشعر أنها منعزلة عن العالم كله ، ولكن بالتدريج تعرفت على باقى سكان العمارة التى كانا يسكنونها - وكانوا جميعا أساتذة فى جامعة الكويت ، كان هناك من بينهم على سبيل المثال أستاذ بكلية التجارة أصبح وزيرًا فى مصر فيما بعد

وأذكر أنه كان يشوى اللحم على السلم خارج شقته يوم الجمعة . وكان يسكن تحتنا أستاذ بكلية الحقوق جمعتنى مع ابنته صداقة حقيقية ، وكانت والدتها عند خروجهم تأخذ معها كوبا من الشاى تشربه في السيارة : الحياة بالكويت كانت هادئة والشوارع عريضة ومريحة للقيادة تسمح بمثل هذه العادات . وكان فى الطابق العلوى أستاذة شاعرة عراقية مع أسرتها سمعت أنها أتت من العراق للإقامة فى مصر مؤخرًا . وكان هناك أستاذ آخر استغربنا جدًا عندما علمنا أن زوجته لا تصحو من النوم إلا ظهرا وعلمنا ذلك لأن الصحف اليومية كانت تمكث ملقاة أمام باب شقتهم حتى ميعاد استيقاظها . المهم تعرفنا على جميع هؤلاء الناس وعلى آخرين وكان الوقت بالكويت يسمح بتكوين الصداقات ، ثم أنه كان من السهل زيارة هؤلاء الأصدقاء لأن المرور فى الكويت منظم حتى فى أوقات الزحام والشوارع عريضة ونظيفة والمسافات غير بعيدة .

تعرفت أمى على أسر مصرية أخرى كانت تعرف بعضها من قبل ثم تعرفت على أسر من بلاد عربية أخرى ومنهم أناس كويتيون ، وتكونت صداقات مازالت حيّة حتى الآن . وبعد أن كانت الكويت تثير الخوف فيها فى البداية أصبحت تجد فيها بالتدريج مميزات لا توجد فى بلدان أخرى ، فناسها أولا طيبون وعلى خلق جميل وكرماء فى معاملتهم جدًا ثم إن طبيعة البلد الهادئة تسمح بمزاولة حياة اجتماعية وتكوين صداقات حقيقية ،

كما أن هدوء البلد نفسه يساعد على راحة البال وتنظيم الحياة والقيام بعمل ذى قيمة ، لأن الوقت متاح لأى عمل يحب المرء أن يقوم به .

وأول عمل بدأت أمي الاشتغال به في الكويت كان تهيئة الشقة — وكانت شقة مفروشة مجهزة من قبل إدارة الجامعة — حتى يصبح لها طابعنا . وقامت بذلك بدون وعى فغيّرت ستائر غرفة المعيشة وملأت الغرفة بالنباتات وأذكر أن هذه النباتات كبرت وازدهرت وتسلقت على الجدران حتى السقف وغطت كل سقف الغرفة وكان منظرها جميلا ولافتا للنظر بقوة . ثم كانت فى غرفة الطعام المجاورة لغرفة المعيشة منضدة طويلة قسمتها أمي إلى نصفين : نصف تحوّل مكتبا لأبي يعمل عليه والنصف الآخر كان لتناول الوجبات اليومية . وقامت أمي بهذا التقسيم حتى يكون أبي بجوارها وهو يعمل فلم تكن تريد أن تكون له غرفة مكتب مستقلة حتى لا يفصل بينهما حائط وباب مغلق .

ثم حذفت الأثاث الذى كان فى مدخل الشقة وفي قاعتها صففت على جدرانها مكتبات نظمت على رفوفها كتب أبي التى أتى بها معه من أسبانيا . وملأت هذه الكتب الصالة والمدخل وجزءًا من غرفة السفرة وغرفة صغيرة أخرى كانت مخصصة للنوم ، وبين باقى مكونات الشقه كانت غرفتا نوم ثم حمامان ومطبخ . المهم أن أصبح للبيت طابع كان دائما موجودا فى بيت

أبى أينما عاش . وكانت الألوان السائدة فيه دائما الأحمر والأخضر وهما ألوان أمى المفضلة .

واستأنفا حياتهما فى الكويت ولحقت أنا بهما بعد قليل إذ التحقت بقسم اللغة الإنجليزية بالجامعة هناك . وكان اختيارى هذا يدهش الكثيرين إذ كان من المتوقع أن أختار اختصاصا متصلا بتخصصات أبى واهتماماته . ولم أستطع أن أرد على هذه الأسئلة فى ذلك الوقت ، ولكننى أدركت بعد ذلك أننى كنت أريد — بدون وعى — أن يكون لى عالمى الخاص وشخصيتى المستقلة وأن يكون التخصص الذى أريده من اختيارى أنا . والطريف أننى بعد أن بدأت الدراسة بالأدب الانجليزى وبدأت أتناقش مع أبى فى بعض الموضوعات التى كنت أدرسها أدركت أنه كان يعلم بالتفصيل عن تاريخ إنجلترا وآدابها وفكرها أكثر مما كنت سأدرسه فى كل سنوات دراستى هناك .

وكانت إقامتنا فى الكويت فترة سمحت لنا بالتعرف على عرب غير المصريين وأذكر أن من أعمق الصداقات التى كونها أبى هناك كانت صداقة جمعته بأحد الفلسطينيين المتخصصين فى التاريخ الإسلامى أيضًا ، وأتاح لنا ذلك فرصة لكى نتعرف — أنا وأمى — على القضية الفلسطينية من الباطن أى من نفس أهلها . فكان هذا الدارس الفلسطينى رحمه الله — إذ اتصلت بنا فى مصر زوجته مؤخرا لكى تبلغنا بوفاته فى الأردن حيث كان يعمل أستاذا فى

إحدى جامعاتها وكان يحكى لنا عن هموم الفلسطينيين خارج وطنهم ، وكيف يحلمون بالعودة إلى وطنهم ورأينا كيف يهتمون بأولادهم وتربيتهم حتى يكون الفلسطينى دائما محترما ويقصون على أبنائهم الصغار تاريخهم وتاريخ عائلاتهم العريقة حتى لا ينسوها أبدًا وحتى يكونوا على أتم معرفة بأصولهم وجذورهم . وأذكر أنه كان كثير الحماسة للرئيس جمال عبد الناصر وكان يعتبره بطل العروبة الأول ، ولذلك كان يعلق صورة كبيرة له فى غرفة المعيشة لديه .

وتعرفت أمى بهذه الطريقة على البلدان العربية المختلفة وإيجابياتها وسلبياتها وقضاياها والسمات المميزة لكل منها . ويرجع ذلك إلى حب استطلاع غريزى فيها ، ثم إنها كانت تريد أن تشارك أبى فى اهتماماته بقدر المستطاع . فإن سألها أحد اليوم عن القضية الفلسطينية أو عن سوريا وحكوماتها أو عن الأردن والملك حسين أو عن تونس وتاريخها الحديث أو عن أى بلد عربى آخر سيجد أنها تعرف أدق التفاصيل عن ذلك البلد مما حصلته عن طريق حب المعرفة والقراءة الكثيرة والشعور بالانتماء للعالم العربى . ولست بهذا أود الثناء عليها بل أقول الحقيقة عن طبيعتها ومقدرتها على التكيّف وعلى فهم الآخرين بدون أى حاجز من الحواجز بينها وبينهم ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى زواجها من أبى فكان هو كذلك يقابل الناس على المستوى الإنسانى وكان لذلك محبوبا جدا حيثما ذهب .

وأحيانا كنت أسأل أمي إن كانت تشعر بأصلها السويسرى فكانت تجيب بأنها مادامت مع أبى فإنها تشعر بأنها مصرية وأن انتماءها كله لمصر ولكن عندما كانت تذهب إلى سويسرا لزيارة أهلها كانت تشعر بأنها سويسرية بمجرد أن تضع رجلها على أرض سويسرا أسفل سلم الطائرة وتصل إلى بيت أهلها وتشهد من جديد قيم النظافة والنظام واحترام الغير أيا كانت طبقته الاجتماعية واحترام القواعد السلوكية التى يتبناها الجميع أى الجيران بعضهم بالنسبة لبعض والمارون بالشوارع والمشترون بالمحلات ، وقائدو السيارات فاحترام القانون والقواعد السلوكية يمثل هناك قيمة فى حد ذاته . وقالت أمى أيضًا إن الشعور بانتمائها إلى سويسرا هذا يزول بمجرد أن تعود إلى جانب أبى .

وأذكر هنا بمناسبة اختلاف القيم ما بين مصر وسويسرا على سبيل المثال ففى سويسرا لا يوجد موزعو صحف بالمنازل فالصحف توضع فى الصباح الباكر فى صناديق معدنية مفتوحة من الجانب وبها ثقوب توضع النقود فيأخذ المواطن السويسرى الجريدة ويضع قيمتها فى الثقب المخصص لذلك . وهناك ثقة كاملة فى المواطنين إذ لا يعين موظف لحراسة صناديق الصحف هذه . وأذكر أننى سمعت فى إحدى المرات طالبا مصريا يدرس هناك بأنه يأخذ الصحيفة من الصندوق كل يوم ولا يدفع ثمنها ويرجعها بعد قراءتها فى نفس الصندوق وكان يحكى هذا ويتباهى بشطارته ولم يخطر بباله أبدا أنه بهذه الطريقة ينتهك القواعد فى سويسرا

وهو البلد الذى استضافه للدراسة به . وهناك الكثير من هذه الأمثلة والحكايات كنت أتعجب عندما أسمعها لأنها كانت كلها تسيء إلى سمعة مصر ، أما القائمون بهذه الانتهاكات فكانوا مسرورين ويضحكون وهم يحكونها ولا يدركون أن تصرفاتهم هذه من ضمن العقبات التى تحول بين بلدنا مصر وبين التقدم .

أذكر أننى درست فى جامعة الكويت وكانت دفعتى لا يزيد عدد طالباتها عن اثنتى عشرة طالبة وكنا - بطبيعة الحال - نحضر محاضراتنا بعيدًا عن زملائنا الذكور . وكنت أنا الوحيدة المصرية ، أما باقى زميلاتى فكانت بينهن طالبة سورية وأخرى فلسطينية والباقيات كن كويتيات . وأذكر أن المحاضرات كان يلقيها علينا عدد من كبار أساتذة اللغة الإنجليزية ، وكان بعضهم مصريين والآخرون من بلدان عربية أخرى . وبسبب عددنا الصغير كانت المحاضرات مكثفة ، وكان هناك وقت لكى نسأل الأستاذ ما نريده مما ندرسه وأن نتناقش فى المواضيع فى تعمق . وعددنا الصغير جعلنا نصبح صديقات ، وظلت هذه الصداقات مدة طويلة بعد تخرجى إذ كنا نتراسل سنوات طويلة ثم اختفت كل واحدة منا فى بلدها وحياتها . المهم أدت الصداقات التى كونتها فى جامعة الكويت إلى التزاور داخل البيوت . وأذكر كم كانت بعض بيوتهن جميلة بل كان بعضها بمثابة القصور ولم أر بداخلها إلا ما هو جميل وما هو ثرى . فكانت الشوك والسكاكين التى نأكل بها من نوع « الكريستوفل » المذهب والأطباق « ليموج » أو

« روزنتال » والسجاجيد إيرانية أو صينية والتحف صينية قديمة وأطقم المجالس فرنسية . وكنا نشرب القهوة المرّة بالجبهان فى « استكانات » ثم نفرش السفرة بالمأكولات الكويتية مثل « المنف » و « المقلوبة » والطيور البرية التى كان يصطادها رجالهم فى مواسم العيد . ثم كانت ملابسهن معظمها من بيوت الأزياء المعروفة مثل « جى لاروش » و « لانفين » و « ديور » وأسماء أخرى شهيرة : كان كل ما أراه داخل هذه البيوت جميلا وثريا وكان الكويتيون أنفسهم يقدرون ما لديهم فلم يجيئوا بمثل هذه الأشياء لإبهار زوارهم بل كانوا يأتون بها لأنه كانت لديهم ثروات عظيمة فكانوا ينفقون على بيوتهم وعلى أنفسهم وكانوا فى غاية الكرم فى استضافاتهم .

وأذكر أن جلساتنا كانت دائما نسائية وكنا ننسى خلالها إلى أى بلد عربى ينتمى كل منا وكنا نحكى ونتناقش فى أمورنا الشخصية والعامة وآمالنا وأحلامنا وعاداتنا واهتماماتنا ومخاوفنا . وكانت اجتماعاتنا هذه لا تتكرر كثيرًا ولكنها حينما كانت تحدث كانت متعة حقيقية وعلمت من خلالها جمال أخلاقهم وتكريمهم للضيف . والذى يضفى قيمة لهذه الصفات أنه لم تكن بيننا مصالح مادية ولا غيرها فكنا مجرد زميلات بالجامعة .

وعندما كنت أرجع إلى البيت وأحكى عما فعلت كان أبى دائما يثنى على الكويتيين بسبب إسهاماتهم الكثيرة فى الثقافة العربية فمن يستطيع إنكار أهمية مجلات ثقافية مثل مجلة العربى أو مجلة

عالم الفكر أو سلسلة عالم المعرفة وأشياء أخرى لا تخطر على بالى الآن . إنهم كشعب كسبوا الكثير ولكنهم لم يبخلوا على غيرهم أبدا ومازالوا حتى الآن لهم طابع خاص وحس متميز بالكرامة وعزة النفس وأعتقد شخصيا أن نسبة التقدم لديهم أكبر مما لدينا فى مصر إذ كان الدينار الكويتى أيام وجودنا هناك يساوى تقريبا جنيهين مصريين أما الآن فيساوى ما يتعدى العشرة جنيهات ولا يرجع ذلك إلى ثروة البترول التى لديهم فمصر بها ثروات أخرى كثيرة توازى ثروتهم وربما تفوقها ولكن السبب قد يرجع إلى أننا كشعب نسيء التصرف فى أمور كثيرة ونضيع وقتنا الثرى فى أمور غير أساسية ، وكان أبى رحمه الله يحزن كثيرا لذلك .

ولكن معاملة الكويتيين لنا لم تكن دائما جيدة فكنا أحيانا نعامل بطريقة غير ملائمة من صغار الموظفين الكويتيين . وأذكر — على سبيل المثال — أنه فى مرة من المرات عند عودتنا إلى الكويت بعد قضاء العطلة الصيفية فى مصر وجدنا حقيبة سفر من حقائبنا ناقصة . فقالوا لنا فى المطار إنه يجب علينا أن نسأل عنها بعد بضعة أيام فى مخازن المطار حيث يرسلون كل الحقائب التى تاه أصحابها عنها . فذهبنا وأتذكر المنظر الذى رأيته بوضوح وكنت فى صحبة أبى وأمى إذ دخلنا مكتبا كبيرا ووجدنا موظفا كويتيا جالسا على مقعد المكتب وهو يرتدى الدشداشة وهى الجلباب الأبيض المعروف لدى الكويتيين وعلى رأسه غترة بيضاء أيضا وكانت قدماه الاثنتان مرفوعتين على المكتب أمامه بدون حذاء .

وعندما دخلنا عليه لم يتحرك من وضعه وحيانا وهو فى نفس هذا الوضع وطلب منا الأوراق التى تثبت أن لدينا فعلا حقيبة لم نعثر عليها وقال لنا أن نذهب حيث المخازن وأن نبحث عنها نحن . قال كل ذلك وهو لم يتحرك ولم يرسل أحدًا معنا حتى يساعدنا على البحث . وبطبيعة الحال لم نجد الحقيبة إذ كان بهذا المخزن مئات الحقائب ومن البضائع الأخرى فتركنا المكان دون أن نعثر على ما كنا نبحث عنه وبدون أن ندخل ثانية فى هذا المكتب لأن ذلك الموظف لم يراع أبسط سلوكيات التمدن عند استقبالنا . وحدث أن أبى حكى هذا الموضوع لأحد أصدقائه الكويتيين فذهب هذا الصديق وتطوع بأن يأتى بالحقيبة الضائعة .

وكان أبى حقيقة سعيدا بوجوده فى الكويت فكان يعمل بالجامعة صباحا وفى البيت بعد الظهر . ومن الكتب التى ألفها خلال وجوده هناك كان كتاب عالم الإسلام (١٩٧٥) والحضارة (١٩٧٨) والمساجد (١٩٧٨) وترجمة كتاب تراث الإسلام فى جزءين (١٩٧٨) .

وكان قد عيّن رئيسا لقسم التاريخ الذى كان يعمل به وأذكر أن طريقته فى الرئاسة كانت أنه وزّع جميع مسئوليات القسم على زملائه من الأساتذة وكان كل واحد منهم يعرض أمور مسئوليته فى مجالس القسم . وكان لا يتدخل إلا فى الأمور التى كان يعتبرها حاسمة .

أذكر أنه أثناء رئاسته للقسم حصلت إحدى الطالبات الكويتيات على درجة الدكتوراه وكانت تريد أن تدرس لطلبة السنة الرابعة بالقسم أى سنة التخرج . ورفض أبى هذا الطلب ، وقال إن كل من يدرس فى السنة الرابعة يجب أن يكون بدرجة أستاذ ولو كان هناك مدرس تخصص فى مادة تدريس بالسنة الرابعة فيجب أن تمر عليه على الأقل خمس سنوات خبرة بعد نيله درجة الدكتوراه حتى يسمح له بالتدريس فى السنة الرابعة . وأذكر أن زوج هذه الدكتورة الكويتية كان ذا نفوذ كبير فى الدولة وكذلك كان والدها ولكن أبى لم يتنازل عن قراره فكان يريد أن يبقى مستوى خريجى القسم على ما يجب من الارتفاع ، فهو لا يعرف المجاملة على حساب العمل .



أبى مع الدكتور عبد العزيز كامل فى الكويت فى السبعينيات .

رحلة بحرية . مع الماعز !

حقق أبى من عمله الخاص الكثير بالإضافة إلى ما ذكرته ، إذ بدأ هناك عمله فى أطلس تاريخ الإسلام الذى لم يكن فى بداية الأمر مشروعًا كبيرًا ، بل كان فكرة بسيطة تطورت وأصبحت ذلك الكتاب العظيم الذى نعرفه جميعا . ثم عمل أيضًا فى كتاب سيرة محمد ﷺ وفى كتب أخرى لا أذكرها حاليا على وجه التحديد . وساهم بمقالات في مجلة العربى وبأبحاث فى مجلة عالم الفكر ، وكان يكتب عمودًا يومياً فى جريدة القبس سماه « كلمة طيبة » حقق كل ذلك وهو جالس يومياً فى الثانية ظهرا إلى ما يقرب من الثامنة مساء على نصف منضدة السفرة المخصص لعمله .

أما العطلة الأسبوعية فكانت يوم الجمعة ، وكنا نخرج من البيت بعد الصلاة لتناول الغداء فى مطعم اسمه سقراط وبعد الأكل كنا غالبا ما نذهب لزيارة أستاذ صديق كانت تجمعنا به وبأسرته صداقة منذ أيام أسبانيا ، إذ كان يعمل هناك وكيلا للمعهد . وأذكر أننا كنا نزورهم كثيرًا في يوم الجمعة وكانت زوجته حاملا فى الطفل الخامس . وأذكر أنهم كانوا متأكدين أن هذا الطفل سيكون ولدًا وكانوا سيسمونه « يوسف » وحدث أن الطفل كانت

بنتا (وهم الآن يقيمون فى مصر ، وقد أصبحت شابة جميلة جدا وذكية يتجاوز سنها العشرين بقليل) .

وكان الحديث يجرى فى هذه المناسبات والزيارات إما عن عمل يجمع بين أبى وصديقه وزميله أو عن ذكريات أسبانيا . فكان يذكر أبى — على سبيل المثال — احتفالات العاملين بمعهد مدريد حيث كانوا يذهبون إلى مطعم معروف بالمشويات وكان اسمه « كاسابيدرو » ويوجد قرب « البلاثا مايور » بمدريد ، وكان يذكر كيف كان صديقه هذا يتقاسم بينه وبين سكرتير المعهد فى هذا الوقت ثلاث دجاجات مشوية ، إذ كان يأكل منهما دجاجة ونصفا ولا يتعبان من هذه الكميات أبدًا ، بينما كان باقى الجالسين يأكلون ربعا أو نصف دجاجة فقط . (وقد توفى سكرتير المعهد وهو صديق عمر طويل بعد أبى بيومين أما أولاده فله بنت متزوجة من مصرى ومقيمة فى ألمانيا وأخرى مرافقة لزوجها فى بلد عربى وولد مهندس ناجح يقيم فى مصر) .

وبما أننا نتكلم عن الطعام تخطر ببالى الآن نادرة من نوادر أيام الكويت الكثيرة إذ كان لأبى صديق هو طبيب مصرى معروف ودعانا هذا الطبيب على العشاء فى مطعم تابع لفندق مهم . وذهبنا لنقابل الطبيب الداعى وزوجته فى المطعم المحدد وكان المطعم مظلما إذ يتصور أصحاب هذه الأماكن العامة دائما أنهم يضفون جوا رومانسيا على المكان عندما يقللون الإضاءة فيه . فسمعت أبى يقول لصديقه بعد أن جلسنا على المنضدة المخصصة لنا :

— يا أخى إننى لا أستطيع أن أراك .

— أفندم يا دكتور ؟

— أعنى أننى أراك فى هذا النور الباهت ولا أدرى كيف أرى الأكل فى طبقى حينما يأتون به .

— هل تفضل أن نغير المكان ؟

— ليتنا غيرنا المطعم كله .

وحدث أننا تركنا المطعم وذهبنا إلى « كافيتريا » الفندق وكان مكانا جميلا أيضا وبه نور قوى جدًا . وسمعت صديقنا الطبيب يقول لأبى ونحن نجلس :

— إنك فضحتنى يا دكتور .

— لماذا ؟ فأنا لم أقصد ذلك أبدًا .

فقال صديقنا :

— فضحتنى لأننى كنت أتيت بزجاجة .. أريد أن أشرب منها خلال تناولنا للعشاء ولكننى الآن لا أعلم أين أضعها بل أين أخفيها فى هذا النور .

— تستاهل يا أخى ، زجاجة إيه دى !

وضحك أبى عندما رأى الزجاجة ملفوفة جيدا والطبيب يمسك بها تحت إبطه . وبعد حيرة طويلة أوقفها أخيرًا على الأرض تحت

منضدة الأكل بين قدميه ، وكان طوال الوقت خائفًا أن تقع هذه الزجاجة على الأرض فقد تنكسر ويفتضح أمام الناس .

ويرجع هذا لأنه من الممنوع فى الكويت تناول المشروبات الكحولية ، فجرت العادة أنه من لديه هذه العادة أن يأتى بمشروبه وأن يضع الزجاجة على الأرض إلى جانب منضدة الأكل بعد أن يملأ منها كوبه ومن يفعل ذلك كان يحقق المثل الذى يقول « ولا من شاف ولا من درى » ، فكان بذلك يحترم قواعد البلد التى يزورها وفى نفس الوقت يرضى مزاجه ، ولكن كان من المهم أن تكون الإضاءة فى المكان ضعيفة . وهذه واحدة من القصص والحكايات والتناقضات الموجودة على اختلافها فى جميع بلدان العالم . أما صديقنا الطبيب فكان كلما قابل أبى بعد ذلك قال له « حرّمت يا دكتور والله ولك الفضل فى ذلك » .

وهكذا مرت أيام الكويت هادئة ذات جمال خاص ، وعند تخرجى من الجامعة هناك أتيت إلى القاهرة حيث كان أخى مقيما وحيث بدأت أعمل فى آخر نفس هذه السنة . وكنت بعد ذلك أزور أبى وأمى أحيانًا فى الكويت ، ولكن ارتباطاتى العملية فى مصر كانت تحد من هذه الزيارات .

وعندما سألت أمى مؤخرًا عن أهم شىء تذكره عن الكويت ردت قائلة . هناك أشياء كثيرة كانت مهمة . وربما يكون أهمها سوق الكويت والمشتريات ، إذ لم يكن فى أسواق مصر فى هذه

الأيام شيء من مستلزمات الحياة من أدوات كهربائية لازمة للحياة اليومية ولا ملابس ، فكان كثير من الناس يلجئون إلى « شارع الشواربي » حيث يجدون الأشياء المستوردة أو إلى « تجار الشنطة » الذين كانوا يمثلون ظاهرة حقيقية في هذه الأيام إذ انتشروا انتشارا مذهلا .

وقد تكون أمي على حق إذ كنا نجد في المطار عند عودتنا إلى مصر في عطلة الصيف جميع المصريين وقد حمل كل منهم في يد مروحة كهربائية وفي اليد الأخرى بطانية ذات ألوان جميلة مغلفة في ورق شفاف وكذلك جهاز « راديو ترانزستور » يحمله المسافر العائد تحت إبطه . ولا أظن أن السوق المصرية تحسنت إلا في الثمانينات ثم لم تصبح سوقا بمعنى الكلمة إلا في التسعينات حيث أصبح من الممكن شراء أي شيء في مصر والاستغناء تماما عن المنتجات الأجنبية أو عن إحضار أي شيء من الخارج .

وأذكر أنه كان علينا أن نأتي بكل شيء من خارج مصر في فترة الستينات والسبعينات . فعلى سبيل المثال كانت إبر الحياكة المصنوعة في مصر — وتعتبر الابر من أبسط الأشياء — كانت تُصاب بالصدأ فتفسد القماش أما الخيط المصري فكان غالبا ينقطع أثناء الحياكة . كان كل شيء غير موجودًا ولو كان موجودًا فإن نوعيته كانت رديئة للغاية ويكفي أن تتذكر « فترينات » المحلات في مصر في هذه الفترة ، إذ كانت خالية من أي شيء يحتاج

إليه المشترى لحياته اليومية ولست أعنى هذه الكماليات بل المنتجات الأساسية التى قد توفر حياة حديثة كريمة مريحة للمواطنين . وعبر أبى عن فترة الستينات فى مصر فى كتابه باشوات وسوبر باشوات (١٩٨٤) الذى مازال موجودًا فى السوق حتى اليوم بعد أن طبع منه حتى الآن ما يفوق العشر طبعات إذ لا أعرف أحدًا لم يقرأه . وأظن أن أبى كان قد فتح باب الكتابة عن هذه الفترة التاريخية الحاسمة بالنسبة لمصر بهذا الكتاب (ويذكرنى هذا بأننا لم نر ولم تستمع عن ناشر هذا الكتاب منذ ما يقرب من خمس سنوات على الأقل : عسى أن يكون بخير) .

وكان قد نشر كتاب « السوبر باشوات » فى بداية الأمر على شكل مقالات فى مجلة أكتوبر فى صيف ١٩٨٣ وحازت هذه المقالات إقبالا شديدًا من القراء .

وعندما كان أبى يجهز مجموعة مقالات لكى تنزل على هيئة كتاب — وحدث ذلك أكثر من مرة — لم يكن يقدم للناشر المقالات كما هى بل كان يقرأها بتأن وعناية شديدة ويضيف إليها فقرات وأحيانا صفحات كاملة حتى لا تظهر فى الكتاب المطبوع ثغرات ، ثم كان يضيف مقدمة تغطى الموضوع حتى يصبح كتابا علميا من الممكن الاعتماد عليه . وأذكر أن أمى كان يثيرها الضيق من مراجعات أبى المطولة لكتبه وكانت أحيانا تأخذ منه ما يحضره للناشر وتقول له : « إن هذا يكفى وحبذا لو كلمت الناشر الآن حتى يستلم المخطوط غدا » .

وبما أني ذكرت كتاب « السوبر باشوات » يجب ذكر كتاب « دراسات في ثورة ١٩١٩ » (١٩٧٦) الذى ذكر فيه أبى — وأعتقد أنه أول من يقوم بذلك — أن ثورة ١٩٥٢ كانت تتويجا للثورة المصرية نحو التحرر التى بدأت فى الحقيقة فى عام ١٩١٩ .

ولا يعنى ما كتبه أبى فى كتاب « السوبر باشوات » المذكور عن الفترة التى جاءت بعد ثورة ١٩٥٢ أنه لم يرحب بقدومها . فقد كان حسبما ذكرته أمى لى متحمسا لها حماس باقى المصريين حينذاك ، ونتج عن حماسته هذه كتاب آخر من أجمل كتبه وهو كتاب « مصر ورسالتها » (١٩٥٥) المعروف . وتحكى أمى أن حماس أبى للأحداث السياسية فى مصر فى الخمسينات جعله يكتب هذا الكتاب فى وقت قصير إذ كان — حسب كلامها — يعمل فيه ليلا ونهارا ولأن أفكاره كانت تأتى إلى ذهنه بسرعة مذهلة كان قلمه لا يلاحق فكره فى الكتابة فكان يدفع بالورقة المكتوبة بكف يده حتى تظهر الورقة البيضاء التالية أمامه يكتب عليها الجملة التى فى ذهنه قبل أن ينساها .

وكان ينفعل بكل ما يحدث في مصر سواء كان على أرضها أو فى سفر ، وكان دائما ينظر للأمور من الناحية الإيجابية المشرقة التى قد يجيء منها الحل والطريق لمستقبل أحسن ، ولم يعرف انتماءً حقيقيا إلا انتماءه لمصر ولم يجامل أحدًا على حساب مصلحتها أبدًا . وأذكر بهذه المناسبة أنه كتب مقالا فى مجلة

أكتوبر كان موضوعه « نحن لا نحب الروس ولا الأمريكيين » وذكر فيه كيف تعانى مصر وقتها من كلتا الكتلتين على قدم سواء . وحدث أنه تسلم خطابا بعد ذلك بأسبوع تقريبا من الغرفة التجارية الأمريكية حيث كان عضو شرف فيها يبلغونه بإيقاف عضويته فيها .

كان لأيامنا فى الكويت — كما ذكرت — طابع خاص سمته الأولى هى الشعور بالاستقرار والحياة الهادئة . وأحيانا كنا نقوم برحلات غالبا ما كان يحدث ذلك مع أصدقاء أبى الكويتيين . فأتذكر — على سبيل المثال — أن دُعى أبى ونحن معه لزيارة جزيرة فيلكة الكويتية . فقالوا له إننا سنبحر فى أرض الكويت للجزيرة بـ « لانش » يمتلكه أحد أصدقائهم . ففكر أبى فى الموضوع وكانت تدور بباله فكرة أن ربما كان الذى سيقود هذا « اللانش » لا يعلم قيادته جيدًا ، فكثير من أبناء الأثرياء يقودون كل شىء بدون استخراج رخصة قيادة رسمية تسمح لهم بهذا . فخشى على نفسه وعلى من معه وقال له « إننا نريد ضمان وصولنا إلى الجزيرة . وأخشى أن ينقلب بنا هذا « اللنش » فنغرق فى البحار ولا نجد من ينقذنا ، ساعتها لن نرى فيلكة ولا أى شىء آخر . أرجو أن تدبر لنا الرحلة بالطريقة المعتادة لهذا الغرض حتى نصل آمنين » . واتفقوا على الميعاد واليوم والمكان ..

ووصلنا حسب المتفق عليه فى مكان يشبه الميناء الصغير ، وإذا

بمركب خشبي كبير جدًا واقف قرب الشاطئ . كان مركبا ضخما كبيرا لم يقف على مرسى أرض الكويت ، بل كان على مقربة من الشاطىء . ولم يكن لهذا المركب سلم يصعد عليه ، بل كانت هناك خشبة طولها أقل من عشرة أمتار ، أما عرضها فكان تقريبا عشرين سنتيمترا . ولم تكن هده الخشبة صلبة قوية بل كانت تميل بوزن من يخطو عليها . أما البحر ما بين هذا المركب والشاطىء فكان لونه قاتما مما يدل على أن المياه كانت عميقة . ورأينا أنه لا يصعد على هذه الخشبة إلا قطيع من الماعز .. كان عددا كبيرا من هذه الماشية وكل مجموعة معها راعيها وكان جميع الرعاة من أصل إيرانى . فإذا صعدت ماعزة منها وحدها على هذه الخشبة قام راعيها بشدها أو بدفعها إلى أمامه حتى تصعد إلى المركب .

وبعد صعود مجموعة منها يأتى الراعى الذى بعده . عرفنا بعد ذلك أن هؤلاء الرعاة كانوا يأتون بهذه القطعان لكى ترعى على الجزيرة ثم أنه — على ما أظن — كان فى الجزيرة سوق يبيعون فيه هذه الحيوانات .

ووصلنا نحن — أى أبى وأمى وأنا — فحيينا أصدقاء أبى ووقفنا نتفرج على الماعز وراعيها وهم يصعدون على هذا المركب القديم وكلما بلغ أحدهم منتصف الخشبة إذا بها تميل وتتقوس إلى أسفل وكأنها ستنكسر ، هذا مع الضجة العالية التى كان يحدثها رعاة الماعز وأصوات الرعاة . كنا نتفرج ونحن غير مدركين أن نفس

هذا المركب هو الذى سينقلنا نحن أيضًا إلى فيلكة . وبعد تمايل سأل أبى أصدقاءه عن المركب الذى سنقوم عليه برحلتنا فقالوا له هو نفس هذا المركب وأنه بمجرد صعود جميع القطعان ورعاتهم فإننا سوف نصعد . فسكت أبى ولم يقل كلمة فقال له صديقه : « ألم تقل يادكتور أنك تخشى ركوب اللانش ؟ هذه هى المواصلة الشعبية العادية لفيلكة » . كان من عادة أبى أنه لا يحب أن يجازف فكان دائمًا يبحث عما هو آمن ومع ذلك كان جريئًا جدًا عندما يستلزم الأمر ذلك .

وعندما سمعت أمى أننا سنستخدم هذا المركب نفسه انزعجت كثيرا وقالت بتصميم : « إننى لن أترك زوجى يصعد هذا المركب على هذه الخشبة . هذا أمر خطر جدًا . لا نريد أن نذهب إلى فيلكة : وأظهرت بذلك خوفها الشديد على أبى وسلامته ، فكانت طوال عمرها معه تخشى ما قد يصيبه وكان أبى لذلك أحيانا يخفى عنها ما قد يثير فيها الخوف . فكان عندما يسافر – على سبيل المثال – يحدد لها مدة سفره للخارج ثم بعد انتهاء المدة يكلمها تليفونيا فيبلغها بأن الرحلة ستطول بضعة أيام حتى يتمم كل ما كان ينوى أن يحققه وكان معظم أسفاره لذلك يزيد على المدة المتفق عليها من البداية وكان يظن أن ذلك سيخفف أمر الفراق عليها .

المهم : عندما رأى أبى خوفها هدَّأها بقدر الإمكان حتى جاء دورنا فى صعود المركب وأمى تريد منع أبى من ذلك لأنها كانت

تخشى على سلامته . ولكنه صعد ثم تبعته أنا وأخيرا صعدت هى . ومضت الرحلة البحرية ونحن محاصرون بعشرات من الماعز ومعها رعاتها وكانت أمى تقول بصوت خافت « ليتنا كنا أخذنا اللانش » .

ووصلنا فيلكة وزرنا هناك متحفا صغيرا به بعض الآثار الإغريقية أو الرومانية (لا أتذكر بالضبط) وأكلنا ما كنا قد أتينا به من مأكولات لأن الجزيرة لم تكن مجهزة آنذاك لاستقبال الزوار ، ثم عدنا آخر النهار وأظن أننا لم نخرج فى رحلة أخرى بعد ذلك .

مضت حياتنا أيام الكويت هادئة مستقرة وكانت تتيح لنا الفرصة للدخول فى مناقشات طويلة مستفيضة نتذكر خلالها أيام أسبانيا أو نخطط لشيء سوف نقوم به فى مصر . وكان هذا غالبا ما يحدث أثناء تناول أبى لعشائه . فكان – كما قلت – يقف عن العمل فى حوالى الثامنة مساء وكانت أمى تذكره بالميعاد لأن أبى حينما كان يعمل كان ينسى الوقت تماما فكان ينهمك فى عمله ويعيشه بفكره وكيانه . بعد عمله اليومى كان يتناول العشاء على منضدة صغيرة فى حجم صينية الشاى التى كانت تضعها له أمى فى غرفة المعيشة أمام التليفزيون ، ثم ينزل بعد العشاء ليتمشى نصف ساعة تحت العمارة . ومعظم عمارات الكويت كانت مبنية مرفوعة فوق أعمدة فكان هو يمشى نصف ساعة ثلاث مرات يوميا – أى بعد كل وجبة من الوجبات تحت هذه الأعمدة وأحيانا

كنت أنزل معه وفي أحيان أخرى كان يأتي أحد أصدقائه ليمشي معه إذ اكتسب الكثيرون من أصحابه عنه بعد ذلك عادة المشي اليومي . وكثيرا كان ينزل وحده . بعد ذلك كان يعود ويغير ملابسه ويجلس معنا أنا وأمي إلى ميعاد نومه عند منتصف الليل أو بعده بقليل .

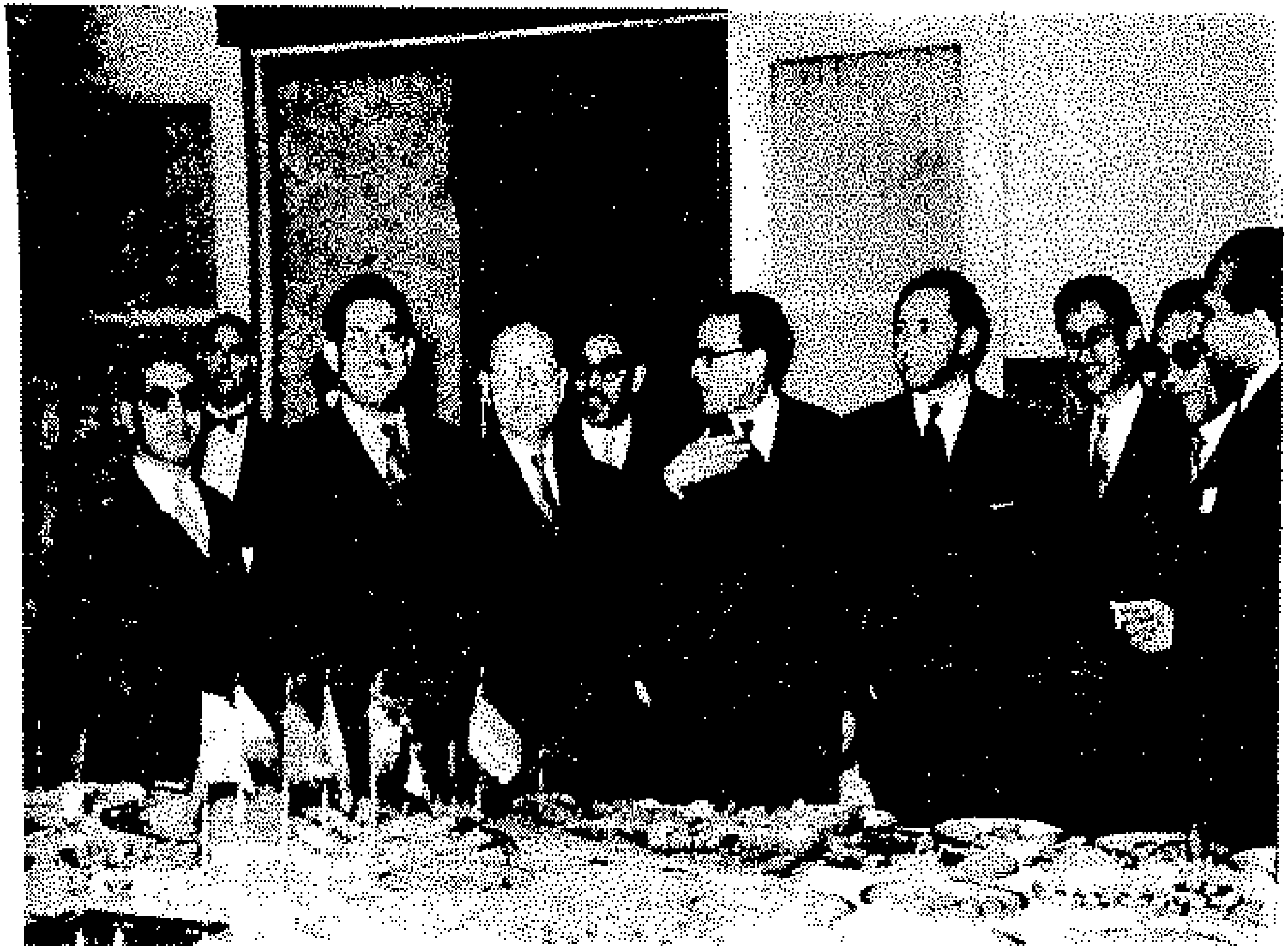
وأثناء جلساتنا هذه كان يدور معظم تفكير وكلام أبي حول موضوع بيتنا في مصر . فكنا عندما نعود إلى مصر في العطلات الصيفية ننزل ونقيم في البيت في ميدان الروضة ، وكان من أمال أمي أن يستعيد أبي « فيلا » كان بناها تابعة لمنتسب هيئة التدريس بجامعة القاهرة وكانت وراء شارع مصدق بالدقي . كان أبي قد أصر أن يؤجرها بعد إتمام بنائها ونحن في سفر خارج البلاد حتى لاتمكث خالية ويسرق ما فيها مثل الحمامات والأبواب وغير ذلك . وكان ذلك كثيرا ما يحدث في البيوت الخالية .

وهكذا أجرها لرجل ثرى بأجر رمزى ، وكان الاتفاق بينه وبين هذا الرجل الساكن أن يخليها بمجرد عودتنا من أسبانيا إلى مصر ، وعندما طلب منه أبي أن يخلى البيت لم يف الرجل بوعده وتمسك بقانون الإيجار الجديد الذى كان . يراعى حقوق الساكن على حساب حقوق صاحب الملك الأصلى .

قضية خاسرة !

بسبب هذه المشاكل دخل ذلك أبى فى قضايا كثيرة استمرت سنوات طويلة جدا وبدون أى فائدة . وكان هذا الساكن رجلا ثريا لاعمل له إلا البقاء فى بيتنا وسلم أبى قضية هذا السكن لمحام بعد الآخر وعندما أسترجع أنا الأمر اليوم أرى بوضوح أن هؤلاء المحامين لم يعاملوا القضية بصدق ولا راعوا فيها مصالح أبى وحقوقه فكل ما كان يهمهم هو مصالحهم الذاتية الشخصية .

فحاول أبى – على سبيل المثال – إخراج الساكن من بيتنا الذى لم نسكن فيه يوما واحدا فى حياتنا لاسيما وأن هذا الساكن كان واسع الثروة إذ له أملاك خاصة كثيرة وكان أبى قد استأمنه لهذا السبب عندما أجر له البيت وكان يقول عندئذ « إنه رجل شبعان وابن ناس » . وحاول أن يأتى له بسكن . آخر على حسابه بل عرض عليه أيضا أن يحصل على رخصة بناء لكى نبنى لنا دورا فوق « الفيلا » به شقة نسكنها ونستقل فيها وكان المستأجر يوقف كل هذه المحاولات بمساعدة محامين ابتكروا حيلا تلاعبوا بها على القوانين التى كانت تؤيد أبى وكان المستأجر يتصرف كأنه صاحب الملك . والحقيقة أن أبى كان دائما يأخذ الأمور بهدوء – ليس فقط فى أمر « الفيلا » هذه بل الأمور كلها – ويعرف كيف



أبي ومعه بعض الدارسين المصريين في مدريد منهم
د . محمود مكي ، د . هلال ، د . أحمد هيكل ، د . مختار العبادي وآخرون .

يسيطر على مشاعره وكان لا يحزن لأى خسارة مادية أبدا فقد كان لايشغله حقيقة إلا عمله وعلمه ولكنه كان – فى حالة « الفيلا » إياها يحزن لأجل أمى فهو يعلم جيدا أهمية وجود بيت مريح بالنسبة لأى امرأة تجد فيه استقرارها ويحيط بها فيه أفراد أسرتها .

كانت مسألة السكن هذه تشغل ذهن أمى كثيرًا ، فالبيت الذى كنا ننزل فيه كان جميلا ومريحا وكنا نعرف كل سكان العمارة وهم ناس طيبون ولكن موقع العمارة كان لا يقدم راحة كافية لسكانها فى ذلك الحين ، إذ كانت العمارة محاطة بالمحلات التجارية والورش التى كانت تظل مفتوحة إلى قرب من طلوع الفجر وكان أصحاب هذه المحلات يفتحون الراديو بدون توقف إلى مواعيد متأخرة جدًا ، فكان من الصعب حقا أن يجد الإنسان راحة حقيقية أثناء الليل فكيف يصبح فى اليوم الثانى مستريحا لينجز ما خطط إنجازه خلال اليوم ؟ وفى هذا الوقت لم يكن قد صدر القانون الذى ينص على إغلاق المحلات التجارية فى موعد محدد ، فالمعروف أن هذا القانون لم يصدر إلاّ فى عصر الرئيس السادات فى أواخر السبعينيات . أما قبل ذلك فكان أصحاب هذه المحلات لهم مطلق الحرية فى إزعاج سكان جميع العمارات التى تحيط بهم . المهم صممت أمى على إيجاد بيت مريح لها وهذه فى المرات القليلة التى رأيت أمى فيها تصمم على رأى وتدافع عنه معارضة أبى الذى كان يريد الانتظار حتى يسترد « فيلا » الدقى . ولكنه

تفهم الأمر وقدّر موقفها وتركها تتصرف فى هذا الشأن وبعد قليل أيدها فى ذلك وأراح ذلك أمى من موضوع « الفيلا » الذى استمرت قضاياه ما يقرب من عشرين سنة وكان موضوع « الفيلا » وقضاياها بمثابة « التميمة » المستمر فى حياتنا وبيتنا .

أما عن الموضوعات الأخرى التى كنا نتحدث فيها فكانت إما متعلقة بحياتنا اليومية فى الكويت أو أحاديث نسترجع فيها شريط ذكريات حياتنا فى أسبانيا . وكنت أحيانا أذكر أبى بشدته فى تربيتنا أنا وأخى خلال جزء من الفترة التى قضيناها فى مدريد . إننى لم أكن ألومه أو أعاتبه عندما كنت أذكره بذلك لأنها كانت أياما مضت وكانت فى مجموعها أياما جميلة جدا . وكان دائما يرد علىّ قائلا : « نعم ، اعترف بأننى كنت شديدا معكما ولكن كان يجب علىّ أن أستعمل هذه الشدة ، لأننى كنت فى هذه الفترة أربيكما وكنت أريد أن تنشآ مصريين يحبان بلدهما وينتميان إليها وكنت أخشى كثيرا أن تنطبعا بسلوك وأفكار بلاد الغرب التى لا تنفع ولا تلائم المعيشة فى مصر . ثم إننى كنت أريد أن نكون سويا كأسرة دائما ولم يكن من الممكن أن أترك فرصة وجودى فى أسبانيا إذ كان هناك الكثير مما يجب علىّ أن أقوم به وأحققه » .

وقام أبى فعلا بعمل عظيم فى معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ويكفى أن أذكر هنا أنه جعل من هذا المعهد أهم مركز التقاء بين الشرق والغرب ونجح فى أن يعطى لهذا المركز العلمى

المصرى شهرة عالمية عالمية لاتزال حيّة حتى اليوم . ثم إنه نجح فى أن يغيّر نظرة الغربيين إلى ماهو عربى وإلى فترة وجود العرب فى الأندلس إذ كان الغرب ينظر إلى العرب دائما على أنهم أعداء لهم متأثرين بفكرة اختلاف الديانات . غير أبى هذا المنظور تماما وحتى اليوم يعترفون له هناك بهذا الفضل العلمى العظيم .

ومن الصعب هنا أن ننسى من عمل معه وساعده فى تحقيق هذه الأهداف الجديرة بالاحترام ، وكان أولهم الدكتور محمود على مكى — وهو أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة الآن — ثم الدكتور مختار العبادى — وهو أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الإسكندريه الآن — وكان هذان الاثنان قد حصلا على درجة الدكتوراه من أسبانيا أيام وجود أبى هناك ثم عينا بعد ذلك فى فترات متتالية وكيلين لهذا المعهد . كان هناك أيضا الفنان الرسام العظيم محمد صبرى الذى أثبت بمعارضه الكثيرة التى كان يقوم بها خلال وجوده فى أسبانيا مدى رقى الفن المصرى المعاصر . ومن الصعب هنا ألا يُذكر اسم الأستاذ عبد السلام عويس رحمه الله الذى كان يعمل سكرتيرا للمعهد طوال مدة إقامة أبى هناك وكان عونا كبيرا وفعالا إذ كان ملما بجميع القوانين السارية فى مصر وكان مرجعًا أساسيا لأبى يعرفه دائما بما يمكن القيام به ، كان إداريا ممتازا ونعم المساعد والصديق .

وأذكر من الفنانين المصريين الآخرين الذين زاروا المعهد المصرى بمدريد وكانوا غالبا قد حصلوا على منح دراسية مثل الفنان العظيم

حامد ندا رحمه الله ، ثم الفنان السكندرى المبتكر سيف وانلى الذى أهدى المعهد صورة كبيرة رسمها على جدار من جدران الطابق الأول من مبنى المعهد وكان حجمها يغطى الجدار كله من الأرض حتى السقف ، وأذكر أننى كنت أقف بجواره ساعات طويلة أتفرج على رسمه هذا وهو لا يشعر بوجودى بجواره ، إذ كان منهمكا فى عمله .

وكذلك مر على معهد مدريد فنانون مثالون مثل عبدالقادر مختار ولويس فلسطين رحمه الله ، وكلهم بدون استثناء أهدوا المعهد عملا أو أكثر من أعمالهم اعترافا بالفترة المثمرة التى قضوها هناك ، أذكر على سبيل المثال تمثالا لفلاحة مصرية نحته مختار – على ما أظن فى حجم آدمى ، كان فى حديقة المعهد وكان فى كل مرة أمر بجانبه يلفت نظرى ، لأنه كان له وجود غريب ، وعند وصولنا إلى مدريد كان حجمى أصغر بكثير من التمثال ولكننى أصبحت أطول منه عند مغادرتنا البلد . كم أتمنى أن أرجع وأرى كل هذه الأشياء إلا أن أبى عاد لزيارة أسبانيا بعد مغادرتها مرارًا ، وعادت أمى مرتين ولكننى لم أزرها – مع الأسف – منذ أن غادرتها فى الستينات .

وهناك أسماء أخرى كثيرة ارتبطت بمعهد مدريد مثل : الدكتور أحمد هيكل والدكتورة علية العنانى والدكتور الطاهر مكى والدكتور أحمد شعراوى والدكتور صلاح فضل وأسماء أناس آخرين كثيرين حصلوا أيضًا على درجة الدكتوراه فى أسبانيا ، وتأثروا بدون شك

بالجو الفكرى الذى كان أبى قد أنشأه هناك ، إذ وصل جميعهم إلى أعلى المناصب العلمية فى مصر . (أرجو أن يعذرنى كل من قد أكون نسيت ذكر اسمه فهو نسيان غير مقصود) .

وأحب أن أذكر هنا شيئا يخفى على الكثيرين اليوم عندما يذكرون المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو أن أبى كان صاحب فكرة إنشاء معهد مصرى فى مدريد يقوم بدراسة اللقاء بين حضارتى الشرق والغرب ، إذ كان قد تقدم بمشروع مكتوب بهذه الفكرة فى الأربعينات للدكتور طه حسين الذى كان يعمل فى هذا الوقت وزيرًا للمعارف ، وقرأ د . طه حسين المشروع المقترح ، ولأنه كان ذا بصيرة وأفق ذهنى واسع وافق مبدئيا على المشروع . واستمر أبى وراء مشروعه هذا حتى أوجدت له الوزارة الميزانية المطلوبة ، ثم بعد بضع سنوات تحقق مشروع المعهد وأصبح له مكان ووجود ، وكل ما أريد توضيحه هنا أنه لولا تفكير أبى فى مثل هذا المشروع ولولا تتبعه له لبقى بغير إنجاز . إن فضل د . طه حسين فى هذا كله أنه تحمس للفكرة وأيدها ، وهذا وحده جدير جدًّا بالتقدير الكبير له ، وحدث أنه بعد إنشاء المعهد فى عام ١٩٥٠ لم يعيّن أبى أول مدير له ، بل عينت الوزارة الدكتور عبد الهادى أبو ريدة — أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة — رحمه الله - ، وكان معه الدكتور عبد العزيز الأهوانى — أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة رحمه الله وكيلا للمعهد وتبعه الدكتور على سامى النشار — الأستاذ بجامعة

الاسكندرية ، فبقى سنة عيّن بعدها أبى لمدة سنة واحدة فى عام ١٩٥٤ ، ثم عاد إلى مصر وعيّن هناك مرة أخرى فى عام ١٩٥٩ حيث استمر مديرًا لهذا المعهد لمدة تبلغ عشر سنوات .

ويجب هنا ذكر أن كلاً من الاستاذين – الأهوانى وأبى ريدة – كانا من أصدقاء أبى الحميمين ، وكان يجمع بينهم نفس الاهتمامات العلمية ، ثم كذلك انسجام على المستوى الشخصى والعائلى ، واستمرت هذه الصداقات وثيقة حتى آخر أيام حياتهم .

أما بالنسبة للدكتور طه حسين وعلاقته بأبى فكانت علاقة جيدة رغم قسوة معاملة عميد الأدب العربى لمن حوله . ومن الأشياء التى لم ينسها أبى أبدا للدكتور طه حسين أنه هو الذى رشحه فى البعثة التى سافر بها إلى أوربا ونال بها درجة الدكتوراه . وحكى أبى أنه كان عليه أن يقوم بكشف طبى كامل قبل سفره للخارج (كان شيئا مثل القومسيون الطبى الحالى) ونجح أبى فى جميع الفحوصات إلاّ فى كشف النظر فكان طوال عمره يعانى من نظر ضعيف ، وكان هذا العجز سيمنعه من السفر . فذهب للدكتور طه وحكى له ما حدث وكان – على ما أظن فى وزارة المعارف حينذاك – فأمر بالإعفاء من شرط النظر .

وكان مقر المعهد المصرى فى بداية الأمر فى « فيلا » مؤجرة فى ١٤ شارع اسمه ماتياس مونتيرو بحى راق فى مدريد اسمه « الفيزو » . وكبرت أهمية المعهد خلال وجود أبى هناك وزادت اهتماماته واهتمام الناس به ليس فقط فى أسبانيا بل على المستوى

الأوربى ، إذ لم يستطع أى مستشرق بمرور الزمن أن يستغنى عنه فرأى أبى أن الأمر أصبح يستلزم مقرًا جديدًا أكبر تمتلكه مصر ويبنى على أرض تابعة للحكومة المصرية . فسعى فى سبيل ذلك حتى حقق غرضه ، إذ خصصت الحكومة أرضًا ملكا لها فى نفس الحى ، وقام بتصحيح رسومه وبنائه مهندسون مصريون على أن تستوفى فيه كل المرافق والمستلزمات لمثل هذه « القلعة الثقافية » ، فكان به مبنى رئيسى للمكاتب وغرف كبيرة للمحاضرات حيث تدرس هناك اللغة العربية حتى الآن ، وغرف للمكتب وأماكن كافية لحفظ المخطوطات الكثيرة وغرف للمطالعة وصالونات لاستقبال الزوار ، وفى الدور الأعلى خصص سكن لأى مصرى يعيّن مديرا للمعهد ، وكان لهذا السكن مدخل منفصل عن مدخل المعهد . ثم أعد الدور الأسفل منه لمطبعة من طابقين إذ كان للمعهد منشوراته الخاصة ومجلته الخاصة .

كان هذا جزءًا مما قام به أبى من الناحية الإدارية فى مدريد ، أما أنشطة المعهد فكانت تشمل تدريس اللغة العربية على مستويين وكانت تعقد ندوات ومؤتمرات علمية كثيرة ؛وكانت المكتبة دائما مليئة بالقراء ، وكان يحتفل فيه بالمناسبات القومية والدينية ، وكان يسوده دائما جو لطيف أسرى ، إذ كان يعتبر نفسه كل من يعمل فيه عضوا من أسرة واحدة ، وكانت تشمل أسرة المعهد الموظفين المصريين وهم أبى ووكيل المعهد وسكرتير المعهد ثم العاملين الاسبان ، وكانوا يقومون بالأعمال الإدارية ثم المسئولين عن الحراسة

إذ كانت تسكن فى أسفل المعهد أسرة حارس المعهد التى مازلنا نراسلهم حتى الآن ، ثم كان هناك العاملون بالمطبعة وهم موظفون محليون من أصل مغربى .

أما عن إنتاج أبى العلمى على المستوى الشخصى فقد حقق الكثير ، ففى هذه الفترة ألف كتبا كسبت صيتاً كبيرًا فى مجال المتخصصين في تاريخ الأندلس الإسلامي وعلى سبيل المثال أذكر كتاب فجر الأندلس (١٩٥٩) ورحلة الأندلس (١٩٦٣) ، وتاريخ الجغرافية والجغرافيين (١٩٦٧) ، وشيوخ العصر فى الاندلس (١٩٦٥) ونور الدين محمود : سيرة مجاهد صادق (١٩٧٤) وأصدر ترجمات عن أعمال أدبية أسبانية معروفة مثل ترجمة ثورة الفلاحين للوبى دى فيجا (١٩٦٧) وترجمته لكتب تاريخ الفكر الأندلسى لا نخيل جونثاليث بالنثيا (١٩٥٥) ؛ ثم أبحاث عديدة قدمها فى مؤتمرات ، ثم استكمل بعد ذلك بعض الكتب التى كان قد بدأها فى فترة إقامته فى مدريد مثل كتاب معالم تاريخ المغرب والأندلس (١٩٨٠) ، وكتاب التاريخ والمؤرخون : دراسة فى علم التاريخ (١٩٨٤) ، وتاريخ المغرب وحضارته (١٩٩٠) ، وتاريخ المسلمين فى البحر المتوسط (١٩٩١) الطبعة الثانية ، ومؤلفات أخرى لا تحضرنى الآن . أتذكر كذلك أنه كان يكتب أحيانا مقالات لجريدة الأهرام ، وكانت هذه المقالات غالبا ما يقدم فيها كتبا جديدة نشرت فى أوربا ، وكانت معظمها كتبا أدبية ، وكان أحيانا يؤلف قصصا أدبية ينشرها فى الأهرام أيضا مثل القصة

الرمزية « إدارة عموم الزير » التى نجحت نجاحا مذهلا وحُولت بعد ذلك إلى نص مسرحى عُرض فى مسرح الثقافة الجماهيرية .

ويخيّل إلى – عندما أرى أسماء مثل هذه المؤلفات وهى تمثل جزءا فقط من مؤلفاته – أنه كانت لأبى خطة عمل أو مشروع ثقافى علمى على المستوى الشخصى ، كان يريد أن يحققه وحققه بالفعل ، ويتضح ذلك عندما نتأمل بيليوغرافيا أعماله كلها ، فهى بدأت بتخصصه الدقيق – وهو تاريخ الأندلس – ثم توسعت لتصبح تاريخ الإسلام ثم ألّف عن تاريخ مصر المعاصر ، ثم اتجه نحو الكتابات الدينية فى سنواته الأخيرة .

أما طريقة عمله أثناء فترة مدريد ، فكان كعادته يقوم بالعمل الإدارى المتصل بالمعهد صباحا ، ثم يعمل فى دراساته العلمية بعد الظهر ابتداء مما يقرب من الثالثة إلى ما بعد الثامنة والنصف أو التاسعة ، فكانت أمى تكلمه بالتليفون – إذ كان يعمل بمكتبه فى المعهد – وتذكره بأنه يجب أن يتمم عمله ويرجع إلى البيت . وأظن أن تدخل أمى وتنظيمها لحياته كان له تأثير على تنظيم خطة عمله . وبالمناسبة كان يعمل فى مكتب بجواره صديقه الحميم الدكتور محمود على مكى – وهو عالم آخر تخصص أيضًا فى الأندلس ليس فى تاريخه بل فى أدبه إن كان من الممكن تقسيم التخصصات فيما يخص مناهج العلوم الإنسانية ، وكان حبهما للعلم ومشاركتهما نفس التخصص قد أضفى صداقتهما قوة جعلتها تستمر فى الخمسينيات إلى أن توفى أبى فى ١٩٩٦ .



أبى مع د . مكى ، د . علية عنانى ، د . أحمد هيكل ، د . هلال
فى حديقة المعهد المصرى بأسبانيا .

في حراسة والدى !

ومن طرائف هذه الفترة أنه عندما كان يدخل أبى مكتبه بعد الظهر كانت تدخل وراءه قطة كان يعتبرها قطته . وكانت أول ما تقوم به هذه القطة أنها تقفز فوق مكتبه وتنتظر منه أن يرحب بها . ثم كان يفتح لها درجا من أدراج مكتبه . فكانت تقفز إلى هذا الدرج وتنام فيه . وإن طال الوقت بغير أن يعيرها اهتماما كانت تقفز من داخل الدرج إلى أعلى المكتب وتقرب من يده التى يمسك بها القلم وهو يكتب ثم تخبط بقدمها الأمامية على هذه اليد محاولة أن يترك القلم ويلتفت إليها . فكان أبى يربت بيده على رأس القطة وظهرها كنوع من الملاطفة فكانت بعد ذلك ترجع إلى الدرج وتستكمل نومها حتى تعود إلى نفس المبادرة بعد ذلك بساعة أو ساعتين . وكان يحدث ذلك كل يوم أثناء عمله بعد الظهر .

وأذكر أنه كان دائما على مكتب أبى – أينما كان هذا المكتب – جهاز راديو يسمع فيه النشرات الإخبارية المختلفة التى تذاع خلال اليوم الواحد ، فكانت قراءة الصحف اليومية والاستماع إلى النشرات الإخبارية من عاداته اليومية .

كانت علاقتي بأبي في أيام الكويت تحولت إلى صداقة حقيقية ، والذي ساعد على ذلك كانت طبيعة الحياة هناك ، فهي هادئة للغاية . ورغم أنه صحيح كان كثير العمل المتواصل فإنه كان لا ينزعج إذا قاطعه أحد أثناء عمله . فكان من الممكن عليّ أن أدخل وأسأله شيئا فيرفع رأسه عن كتابه وقراءته ويرد على أو يناقشني فيما أريد ثم يستأنف عمله بعد خروجي ، وكأن تدخلي لم يحدث . فلم أسمع منه أبدا كلمة « أنا مشغول الآن أجل هذا الموضوع لوقت آخر » . لم أسمع منه هذا لا في الكويت ولا قبلها ولا بعدها ، وكان عمله كأنه شريط في ذهنه يوقفه عندما يريد ويشغله عندما يريد . ثم إنه كان يستمر في عمله بدون أن ينزعج إذا فتحنا التليفزيون مثلا في غرفة المعيشة المجاورة له ، أو استقبلنا ضيوفا أنا وأمي ، فكل ذلك لم يكن يؤثر على عمله أبدًا . أذكر أننا بعد عودتنا إلى مصر من الكويت كانت غرفة المعيشة — وبها التليفزيون أيضًا — مجاورة لمكتبه ومكان عمله . وكانت أمي كثيرة المشاهدة لبرامج التليفزيون ولم يضايقه ذلك في عمله أبدًا بل بالعكس كنت أشعر أن ذلك يؤنسه ، فكان لا يحب الوحدة ، بل يحب أن يشعر بأن أسرته حوله .

وفي أيام الكويت كنت أتذكر مواقف صعبة بيني وبين أبي في أيام أسبانيا وهي الأيام التي كان أبي « يربينا » فيها أنا وأختي . أظن أن أسوأ سنوات مرت على علاقتي بأبي كانت عندما كنت في سن الرابعة عشرة إلى سن السادسة عشرة . وكنت في هذه

الفترة تلميذة بالمدرسة الألمانية فى أسبانيا . وكان أبى خلال هذه السنوات بالذات شديدًا جدًّا معى ، إذ كان يمنعنى من كل شىء تقريبا إلا المذاكرة . فلم يكن يريد أن أتزاور مع صديقاتى ولا أن أحضر حفلات أعياد الميلاد ولا حفلات المدرسة إلا فى القليل النادر . وكان أيضًا يغضب إذا أطلت فى مكالمة تليفونية ، فكان يقول بمناسبة التليفون أنه اخترع لتبادل الرسائل وليس للثرثرة .
وكان دائمًا يقول لى إننا نحن شىء (أى المصريين) وهم شىء (أى الأجانب) ولا يجب أن نصبح مثلهم . فلم أفهم ذلك فى هذا الوقت أبدا لأننى كنت أرى أن أصدقائى وزملائى فى المدرسة والمدرسة كانت مختلطة – محترمون ولم أر عيوبا فيما يفعلون ، ولكنه كان مصمما على أن نعيش حياة مصرية تماما فى أسبانيا . وأحدث ذلك نوعا من العزلة بيننا أنا وأخى وبين أبى الذى كان يمثل لنا الرقيب المستمر . فكانت مناقشاتنا حادة ومطولة ، وكنت دائما أخضع فى آخر الأمر لما يريده لأنه كان فى موقع القوة ، ثم إن كلامه كان دائما مقنعا فى آخر الأمر فهو لم يأمر بشىء بل كان يدخل معى – أو مع أخى – فى مناقشات طويلة بخصوص أصغر الأمور . ولا أتذكر أننا سمعنا منه كلمة واحدة تهيننا أو تجرح شعورنا ، فكان بطبيعته مهذبًا وحساسًا جدًّا يراعى دائما شعور من يواجهه ، سواء أكان من أولاده أم من الغرباء . وكثيرًا ما كانت تحضر أمى هذه المناقشات ولكنها لم تتدخل أبدا حتى لا تنشىء بين أفراد الأسرة أحزابا تفرق بينها .

وكان أبى يطبق هذه الشدة على أخى أيضا ، فلا يتركه كما يشاء بل كان يريد أن يراه دائما جالسًا يستذكر كتبه . وأذكر كيف كان أبى يقول لأخى : « يا ابنى شوف مستقبلك . ذاكر . لا تضيع وقتك » . وكان أخى يرد عليه : « هو مستقبلى هذا لا نهاية له أبدا ؟ ثم متى يبدأ هذا المستقبل ؟ أليست كلها حياة واحدة متواصلة ؟ فكلمة « المستقبل » هذه كانت فى رأيه بمثابة اللغز ولكنه لم يكن يعلم فى هذا الوقت أن عمره قدر له أن يكون قصيرا وأنه لن يرى « المستقبل » الذى عمل الكثير من أجله .

كان أخى وهو صغير يمل من المذاكرة الزائدة فكان يأخذ مجلة من المجلات المخصصة للأطفال ويضعها تحت قمصانه ويدخل الحمام ويقرأها هناك على حريته . فلاحظ أبى أن ابنه كان يمضى وقتا طويلا جدا فى الحمام حتى انكشف الأمر .

استمر أخى مع ذلك فى قراءة هذه المجلات فى الحمام ، إذ كان يخفيها وراء المرآة التى فوق الحوض . وهناك طريقة أخرى كان يهرب بها من المذاكرة الزائدة على حدها ، وهى أنه كان يرسم على مكتب المذاكرة فيظن الجميع أنه يذاكر ، والحقيقة كانت أنه أحيانا كان يرسم وكان رسمه جميلا وذا طابع خاص ، وبقيت هذه الهواية تلازمه حتى توفى رحمه الله فكان رسمه جميلا سواء بالقلم الفحم الأسود أو بالألوان ومازالت رسوماته لدينا

ولكننا نتجنب رؤيتها لأن رؤيتها تذكرنا بأبشع مامر بنا عليه فى حياتنا الأسرية وهو وفاته المبكرة .

وكنا كثيرًا ما نلفت نظر أبى إلى أن بعض الأسر المصرية فى أسبانيا كانت تمنح أولادها الحرية الكاملة ليعيشوا حياة الشباب هناك فكان يقول : « نعم ، إننى أريد ذلك . ولكن من قال إننى أريد أن تصيروا مثلهم ؟ كل أسرة حرة فى تربية أولادها ، وأنا أوجهكم بالطريقة التى أراها ستنفعكم فيما بعد وأثمن رأس مال ممكن أن تحصلوا عليه هو رصيد العلم والمعرفة الذى تحصلان عليه فى سنكم الحالية .

وكان أخى يلاحظ أننا لا نعامل أبدا مثل باقى الشباب الذين حولنا ، ويذكرنى بأننا عندما كنا فى مصر ومازلنا أطفالا كانوا يجعلوننا نذهب لننام فى الثامنة مساءً وندخل السرير ويطفأ النور ثم يقفل باب الغرفة لو كان فى البيت زوار . وبينما كنا نحن ننام كان باقى الأطفال الذين فى سننا يسهرون مع أهاليهم حتى ساعات متأخرة من الليل ، وكنا نحن الاثنين الوحيدين ممن نعرفهم ننام فى ميعاد مبكر حيث كانت تصمم أمى بالذات على ذلك دائما . وبما أننا لم نستطع أن ننام فى هذه الساعة المبكرة فكنا نقرأ تحت غطاء السرير ببطاريات ، كنا قد أتينا بها لذلك الغرض . وعندما كشف أبى وأمى هذا التمرد على النظام لجأنا إلى نظام آخر وهو أن ندخل السرير فى الثامنة ونقرأ بمعرفتهما ساعة تقريبا قبل النوم ثم نطفىء النور . وأرضانا هذا النظام .

وأذكر أن قراءتنا أنا وأخى كانت قراءة موجهة ، أى أن أبى وأمى كانا يختاران كتبا تناسب سننا ، ثم نختار نحن مما اختاراه هما . وظلا يختاران لنا قراءاتنا تقريبا طوال مدة الدراسة المدرسية ، وأذكر بهذه المناسبة أننى مرة من المرات فى سنوات « التربية الشديدة » التى ذكرتها تمردت على أبى فى توجيهاته القرائية ، وكان قد حذرنى بألا أقرأ الروائيين الروس قائلا إن وقت قراءة أعمالهم سيأتى قريبا . أذكر أننى انزعجت بينى وبين نفسى ، وقرأت بدون أن يعلم هو ، كل ما استطعت الحصول عليه من روايات دستوفيسكى وتولستوى بالذات ، وأنا ما بين سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة . واليوم عندما أسترجع هذه الفترة من عمرى أتمنى أن أكون قد سمعت كلام أبى وتحذيراته فى هذا الوقت ، لأن مثل هذه الكتب بها شخصيات ووصف لمواقف لا يستطيع أن يفهمها قارئها إلاّ بعد الحصول على درجة معينة من النضج لأنها غالبا ما تفزع صغير السن أو تجعله يفهمها خطأً وهذا ما حدث لى فى الماضى .

عندما أسترجع هذه المناقشات وهذه المواقف اليوم أجد أن أبى كان على حق ، وأنه كان يواجه مسئولية كبيرة فى تربيتنا ، فكان عليه أن يوجهنا وأن يربى فينا سلوكا وقيما نكوّن بها شخصياتنا وفى نفس الوقت كان يحاول أن يبعد عنا ما قد يضرنا من عادات الشباب الغربى . والنتيجة كانت أنه أنشأ فينا حبًّا واحتراما نادرين لمصر وكل ما فيها .

ولم تستمر هذه الشـدة فى التربيـة إلا بضع سنوات وفهمنا بالتدريج ما يريده منا وفهم هو موقفنا أيضا فالتأثير بينه وبيننا كان متبادلا وإيجابيا ، أذكر — على سبيل المثال — أننى عندما حصلت على ما يقابل فى مدرستى هناك الثانوية العامة فى مصر اقترح على أبى أن أدخل إحدى الجامعات الأسبانية ، وأن اتخصص سواء فى الأدب الأسبانى أو التاريخ . كان ردى يومها أننى كنت أريد أن أدرس « بمدرسة التراجمة » بجامعة جنيف بسويسرا . فاندهش وقال : « وتعيشين وحدك هناك ؟ » قلت : « نعم ، إننى أجيد عدة لغات وأحبها ، ثم إننى أحاول الاعتماد على نفسى » .

أذكر تماما أنه لم يناقشنى كثيرًا فى اقتراحى ، وسألنى أن أتركه يفكر فى الأمر . ومرّ أسبوع ومرّ أسبوع آخر على اقتراحى هذا ومن حين إلى آخر كنت أسأله : « هل فكرت فى الأمر ؟ » وكان رده : « نعم ، مازلت أفكر فالأمر ليس بسيطا ثم إنه مكلف للغاية » .

وبعد أسبوعين أو أكثر بقليل استدعانى ووجدت معه مظروفين كبيرين من جامعة جنيف .. كان قد كتب ليطلب من هذه الجامعة الأوراق التى تعرفنا « بمدرسة التراجمة » هذه ثم متطلباتها . وفتح المظروفين الواحد تلو الآخر .وشرح لى ما فيهما ، وطلب منى أن أراجع الأمر وحدى وأن أفكر فيه جيدا وأنه سيقف معى أيا كان قرارى . وصممت على رأيى فرضى بالأمر .

كانت الدراسة هناك ستغطى خمسة فصول دراسية أى سنتين

ونصف ، وكان على جميع المتقدمين أن يحضروا وينجزوا امتحانات دخول تتطلب الكثير من المذاكرة . وحقيقة أنه ساعدنى كثيراً فى تحضير هذه الامتحانات خلال الصيف .

وجاء وقت السفر . وكانت ستقام امتحانات الالتحاق فى مدينة « فريبور » السويسرية . وسافر أبى معى . كنت أتظاهر بالقوة وبثقة النفس ولكننى كنت أشعر بخوف كبير فى داخلى من التجربة كلها ، ولم أتصور بوضوح كيف أعيش بعيدا عن بيتى وأسرتى التى كانت بالنسبة لى بمثابة الحماية إلى حد كبير . أذكر أن الامتحانات كانت كثيرة العدد ، وكنا سنمتحن صباحا ومساءً (أى بعد الظهر) . وأذكر أن الجامعة هناك كانت قد خصصت لى إقامة مع باقى المتقدمين لهذا الامتحان . فأوصلنى أبى إلى هناك وحجز لنفسه مكانا فى فندق قريب . وكان فى كل صباح يمر على ليرافقنى إلى مقر وقاعة الامتحان . ثم أدخل القاعة وكان هو ينتظرنى فى خارجها يقرأ الصحف أو كتابا أحضره ، وعندما أخرج كان يسألنى بالتفصيل عن الأسئلة وعن إجاباتى ثم كان يرافقنى إلى مطعم ونتناول الغداء فيه معا ، ثم يرجع معى مرة أخرى إلى قاعة الامتحانات . وأذكر أنه لم يبعد أبدًا عن هذه القاعة ، فكنت أراه بمجرد خروجى . ثم كان يرافقنى إلى مطعم لتناول العشاء ويوصلنى إلى حيث السكن الجامعى الذى أبيت فيه ويعود مرة أخرى فى الصباح الباكر حتى تمضى امتحانات اليوم الثانى ، وكانت أيام الامتحانات خمسة . وأذكر أننى قلت له

أثناء هذه الأيام : « ألا تلاحظ يا أبى أننى الطالبة الوحيدة التى يصاحبها أبوها هنا ؟ إن كل من حولى يجيء وحده والكثيرون منهم فى سنى . « فكان يقول : « معلهش ، هم شيء ونحن شيء ، فأنا أشعر أن امتحاناتك هذه كأننى أنا الذى أؤديها » .

ونجحت فى الامتحانات والحمد لله . ورافقنى أبى إلى جنيف وتعرفت على الجامعة ومقرها (وكان هو يعرفها منذ زمن طويل) ودفع لى مصاريف الدراسة ، ثم ذهب معى إلى المدينة الجامعية ، وتسلمنا الغرفة التى كانت ستكون مقرى أثناء إقامتى هناك . ثم ذهب معى إلى بنك وفتح لى حسابا وحدد المبلغ الذى كنت سأستلمه منه فى أول كل شهر . ثم عرفنى على عميد كلية الآداب بجامعة جنيف إذ كان من أصدقائه ، ثم عرفنى بأستاذين آخرين بنفس الكلية ، ثم جلس معى ونظمنا « الكورسات » المختلفة التى كنت سأحضرها خلال مدة إقامتى هناك ، ثم اشترى لى اشتراكا موسميا حتى أسافر بالقطار إلى زيوريخ لكى أمضى نهاية كل أسبوع مع أهل أمى ، ثم عرفنى على الشوارع الأساسية فى جنيف وأحضر لى خريطة لها . واتفقنا أننى سوف أمضى عطلة عيد الميلاد (الكريسماس) وإجازة الصيف مع الأسرة فى البيت فى أسبانيا وكانت تذكرتى تذكرة ذهاب وعودة . ثم قال لى : « والآن نذهب لنحدد ميعاد عودتى إلى مدريد » . وانكمش قلبى وأذكر أننى قلت : « هكذا تسافر وتتركنى ؟ لماذا لا تبقى معى

مدة بداية الدراسة على الأقل ؟ » فضحك وقال أن مهمته قد انتهت وأن أعباء عمله تنتظره فى مدريد .

وجاء يوم سفره ورافقته إلى المطار ومن آخر الأشياء التى قالها لى قبل مغادرته هو أن أتصرف دائما مرفوعة الرأس وألا أقوم بأى شيء قد أخجل منه بعد ذلك وأن يوفقنى ربى . وبقيت فى المطار حتى سمعت من خلال « الميكروفونات » أن طائرته غادرت المكان . ثم امتلكنى خوف شديد وعدت إلى غرفتى فى المدينة الجامعية ، وأذكر تماما أننى نمت بدون تناول وجبة العشاء فى هذا اليوم إذ كنت أشعر بخجل يفوق التصور منعنى من أن أنزل المطعم وأدخله وحدى ، وأنا أعرف تماما أن كل من فيه غرباء علىّ .

ومرت هذه السنوات بسويسرا على ما يرام وعندما أتذكرها الآن ألاحظ أننى كنت خلالها شديدة مع نفسى وأنا وحدى أكثر من شدة أبى على وهو معى .

وعندما سألته بعد مضي سنوات طويلة على هذه الأحداث عما إذا لم يكن يخاف على عندما تركنى وحدى فى سويسرا ، وعاد إلى أسبانيا فقال إنه كان خائفا بطبيعة الحال ، ولكن يجب على كل أب وأم أن يتركا أولادهما لكى يتصرفوا ويعتمدوا على أنفسهم فمهمة الوالدين أن يؤسسوا تربية أولادهم ثم يتركوهم يكونون شخصياتهم ، فالخوف الزائد الظاهر على الأولاد يضعف

شخصياتهم ، ويجب أيضا أن يستند الوالدان إلى إيمانهم بالله وأن يوكلا له أمر أولادهما .

وتصرف أبى مع أخى مثل تصرفه معى فغادر هو وأمى أسبانيا متجهين إلى الكويت ، وكان أخى مازال فى المرحلة المدرسية فتركاه وحده لكى ينال شهادة الثانوية من مدرسته فى أسبانيا . كان أبى رحمه الله كثير التوكل على ربه ، وكان لذلك لا يرى أن هناك أمرا مستحيلا فى الدنيا ، فكل شىء كان ممكنا مادام الإنسان مؤمنا إيمانا حقيقيا . وكان طبعه لذلك السبب أيضًا هادئًا وتصرفاته فى منتهى العقلانية والتوازن ، وأنا لا أتذكر أنه فى مرة من المرات فقد أعصابه واشتبك فى عراك مع أحد أو « شتم » إنسانا ، فلم يكن هذا من طبيعته أيا كان الظرف الذى يواجهه أو الإنسان الذى يقابله .

وغادر أبى وأمى أسبانيا وذهبا إلى الكويت وكنت أنا فى جنيف ، وبقى أخى فى أسبانيا وكان قد قرر أخى أنه يريد دراسة الطب فى مصر بعد ذلك ، وكان قد اتخذ هذا القرار وحده وحققه بعد ذلك بالفعل .



الأسرة مع الدكتور محمود مكي والفنان محمد صبري في إحدى مطاعم مدريد

بدلة « السنيور » مؤنس !

أما أنا فانتهيت بعد المدة المقررة من إتمام دراستى بجنيف ولم تبهرنى وظيفة المترجمين الدوليين ، وكانوا فى الجامعة كثيرًا ما يرسلوننا إلى مقر الأمم المتحدة لكى نستمع إلى المترجمين أثناء عملهم ، وكنا نتابع ترجماتهم وكنت أراهم يجلسون داخل غرف صغيرة جدًا من الزجاج ، الواحد تلو الآخر ، وكانوا يضعون سماعات على آذانهم وأمامهم مكبر صوت (ميكروفون) ويترجمون فيه ما يسمعونه إلى اللغة المطلوبة . وكانت هذه الغرف الصغيرة جدًا التى كانوا بداخلها مرقمة ، وإلى جانب الرقم كانت توجد لافتة عليها اللغة التى يترجمون إليها . وكانوا أثناء عملهم يتحولون بالفعل إلى آلات للترجمة وكأنهم فقدوا آدميتهم . وكان بعضهم مشهورين لدرجة أننا كنا نعتبرهم أبطالا أو نجوما فعلا ، وكنا نراقبهم فى مطاعم مقر الأمم المتحدة . ولكننى كنت أراهم بعد قيامهم بمهمتهم عصبيين ومتعبين لدرجة أنهم لا يستطيعون الكلام مع أحد على الإطلاق بعد الانتهاء من عملهم ، فكان معظمهم يجلس وحده ناظرًا إلى الفراغ أمامه يحاول التخلص من التوتر الذى كان فيه ، أما بعض السيدات العاملات فى نفس مجال الترجمة الفورية فكن نراهن وهن يحاولن التخلص من هذا التوتر

عن طريق شغل « التريكو » . فكانوا كلهم رغم نجوميتهم وثرائهم (فكيف تقام المؤتمرات الدولية بدونهم ؟) فى حالة نفسية وعصبية لا يحسدون عليها .

وحدث أننى تخرجت فى « مدرسة التراجمة » هذه فى الميعاد المحدد لذلك ، ولكن حدث لى موقف فى آخر فصل دراسى أثر فىّ بطريقة حاسمة ، إذ كنت أحضر محاضرة عامة يلقيها مدير قسم الترجمة هذا ، وكان اسمه « دى كلافيه » وكانت عن المصطلحات الدبلوماسية ، وكان يحضرها جميع الطلاب بدون استثناء . وكنا نجلس فى أماكننا وكل واحد منا أمامه ميكروفون ، فكان هذا الرجل يقول مصطلحا أو عبارة بالفرنسية ثم يذكر اللغة التى يريد أن يترجم إليها ثم ينادى اسما من أسماء الحاضرين . وفى هذه المناسبة طلب أن تكون ترجمة ... إلى الإنجليزية وسمعته ينادى اسمى فى المكروفون . وأنا لم أرد إذ كانت اللغات التى أعمل بها هناك الأسبانية ثم الفرنسية ثم العربية ، وكانت الألمانية لغتى الرابعة هناك ، ولكن لم تدخل اللغة الإنجليزية فى برنامجى . فنادى اسمى مرة أخرى فرددت وقلت إننى لا أعمل بالإنجليزية . فكان رد فعل هذا الرجل به مزيجا من السخرية والغضب فقال : « هل يستطيع مترجم فورى أن يعمل بدون اللغة الإنجليزية فى القرن العشرين ؟ هل يستطيع أى إنسان يعتبر نفسه إنسانًا معاصرًا أن يعيش فى القرن العشرين بدون إجادة اللغة الإنجليزية ؟ » وضحك الجميع وكان عددنا يفوق الخمسمائة طالب ، وشعرت

أننى كما يقولون « فى نصف هدومى » . وبدأت مسألة اللغة الإنجليزية تشغل بالى كثيرًا فكنت أعرف الإنجليزية طبعا ولكنها كانت لغة أعتبرها جانبية .

وحدث أننى كتبت خطابا لأبى فى الكويت وحكيت له ما حدث وسألته إن كان من الممكن أن أمضى سنة فى إنجلترا بعد تخرجى من جنيف فجاء الرد سريعا بالموافقة ، وحدث بالفعل أننى بعد أن حصلت على شهادتى من سويسرا أمضيت سنة كاملة فى لندن ، ثم التحقت بأبى وأمى فى الكويت والتحقت هناك بقسم اللغة الإنجليزية ، حيث عادلت الكلية ما درسته فى انجلترا بجزء من مواد الليسانس ، وتحوّل بذلك مجرى حياتى العملية تماما ، وأذكر أن أبى لم يلمنى لذلك بل شجعنى كثيرًا .

كان لأيام الكويت – كما قلت – طابع خاص تميزه الراحة والهدوء . وكان أبى يتناول العشاء أمام التليفزيون ثم ينزل لنزهته اليومية ثم يجلس معنا أنا وأمى أمام التليفزيون بعد عودته . وفى هذا الوقت كنا نشاهد البرامج التليفزيونية – إن كان هناك برنامج جيد – وكان أبى دائما يأكل اللب الأبيض الذى كان يلازمه دائما فى هذه الجلسات ، أو كنا نتحدث فى أمور شتى . وكثيرا ما كنا نسترجع ذكريات أيام أسبانيا .

وذكر أبى وأمى – على سبيل المثال – السفراء المختلفين الذين كانوا على رأس السفارة المصرية فى الفترة الطويلة التى أمضاها

هناك . ففى إحدى المرات وصل سفير جديد . وكان سوريا إذ كان وقت الاتحاد مع سوريا – وكان على جميع أعضاء السفارة أن يرافقوه فى يوم تقديم أوراق اعتماده للحكومة الأسبانية . وكانوا فى هذا اليوم يقابلون جميعا ويصافحون الرئيس فرانكو . وفوجئ أبى بأنه كان يجب عليه فى هذا اليوم أن يرتدى بدلة من طراز « الفراك » الأوربى ، وهى بدلة سوداء تتميز بأن لها ذيلين ينزلان إلى الأسفل من ظهر « الجاكيته » . ولم تكن عند أبى مثل هذه البدلة ، وهى بدلة مكلفة جدًّا إذ بها أكثر من عشرين قطعة ما بين الصديرى وربطة العنق الصغيرة وأزرار خاصة بالكمين وأشياء أخرى معقدة للغاية . وإلى جانب تعقيدها وتكاليف تفصيلها – وهى لا تُرتدى إلا فى مناسبات نادرة جدًّا – ولم يكن هناك وقت كاف لتفصيلها فكان ميعاد تقديم أوراق الاعتماد هذه قد اقترب جدا .

وناقش أبى موضوع البدلة مع سكرتير المعهد الذى كان من سماته أن يأتى دائما بحلول فى المآزق ، واقترح على أبى وعلى وكيل المعهد الذى كان فى نفس المأزق أن يؤجرا مثل هذه البدلة قائلا : إن فى أُسبانيا هناك محلات متخصصة لتأجير الملابس الرسمية . فرفض أبى الاقتراح قائلا : إنه ليس من المناسب أن يرتدى مدير المعهد وهو فى نفس الوقت المستشار الثقافى بالسفارة بدلة مؤجرة وإن هذا « قلة قيمة » . فأقنعه السكرتير قائلا : إنه سيؤجرها يوما واحدًا فقط ولن يعلم بهذا الأمر إنسان فسيكون ذلك سرا

بينهما . فاقتنع أبي بالذات لأن الوقت كان ضيقا ورأى أنه ليس هناك حل آخر . فذهب هو والسكرتير ووكيل المعهد إلى هذا المحل . وعندما دخل قال لهم صاحب المحل وهو يستقبلهم : « هل أنتم تابعون للسفارة المصرية ؟ »

قالوا : « نعم . ولكن كيف علمت بذلك ؟ »

قال : « علمت ذلك من شكلكم أولا ، ثم إن جميع أعضاء السفارة المصرية أتوا إلى هنا فضحك أبي ومن معه كثيرا ، ثم قاموا باستئجار البدل ، وضبطت مقاساتها وأرسلت إلى المنزل وهي كأنها جديدة ، ومفصلة على مقاس أبي ووكيل المعهد .

وجاء يوم تقديم أوراق الاعتماد . وكانت هذه مناسبة يحتفل بها الأسبان احتفالا يقومون فيه بتجهيز قافلة كبيرة من العربات التاريخية تشدها الخيل . ويجلس داخل هذه العربات الملكية — فهي خشبية مذهبة — أعضاء السفارة المختلفون . ثم تتجول هذه القافلة في شوارع مدريد الرئيسية حتى توصل السفير وأعضاء السفارة إلى القصر الملكي — « البلاثيو ريال » — حيث ينتظرهم الجنرال فرانكو . وكان ينشر خبر تقديم أوراق الاعتماد هذه في الجرائد اليومية ، وكذلك المسار التي تتخذه القافلة لأن الكثيرين من الأسبان يحبون الوقوف في الشارع للفرجة على القافلة وهي تمر .

وأخذتنا أمي — أنا وأخي — وذهبنا إلى شارع رئيسي حتى

نرى القافلة تمر ، ونرى أبى داخل العربة مرتديا بدلة « الفراك » وذهبت معنا مديرة المنزل لدينا وكانت أسبانية . وجرت العادة أنه عندما تمر القافلة أمام المشاهدين أن يصفقوا جميعا ، وكان المنظر دائما مبهرا وجميلا . ووقفنا بالفعل وانتظرنا . ومرت القافلة ، ورأينا أبى بداخل العربة المخصصة له . ولكن مديرة المنزل الإسبانية لم تستطع أن تسيطر على أعصابها وإلى جانب التصفيق جرت نحو العربة التى بها أبى وصاحت بأعلى صوتها : السينيور ! السينيور » ! وأعادها البوليس الأسبانى إلى مكانها مع باقى المشاهدين .

وبعد هذه المناسبة اضطر أبى أن يفصل بدلة « فراك » لنفسه حتى لا يلجأ مرة أخرى إلى تأجير ملابس . وأذكر أنه لم يكن يحب ارتداءها أبدا فكان يتعارض مثل هذا الملبس مع طريقته فى الحياة ، إذ كانت ملابسه دائما بسيطة وليس بها ما يلفت النظر ، فقد كان متواضعا لا يحب لفت الأنظار لا عن طريق الملابس ولا فى سلوكه مع غيره ، ومع هذا التواضع كله كان له وجود قوى أينما ذهب .

وذكرت أمى مناسبة أخرى مع سفير مصرى آخر كان معروفا بكرمه ومعاملته الجميلة لكل من حوله حيث كان مسافرا إلى مهمة من أسبانيا إلى فرنسا . فطلبت منه زوجته السفيرة أن يأتى بستين مترا من القطيفة الفرنسية حتى يجددوا بها ستائر السفارة .

وأتى السفير بأحسن نوع قطيفة وجده فى باريس . وعندما رأت زوجته القماش وجدت أنه لا يصلح للستائر لأنها كانت قطيفة من نوع فاخر تصلح للملابس . ووجدت نفسها بهذا الكم الهائل من القماش الممتاز ولا تعلم ما تفعل به . ففكرت وانتهت إلى حل وهو أنها قصت القماش إلى قطع طول كل منها خمسة أمتار وأهدت كل واحدة من زوجات موظفى السفارة قطعة قماش بدون أن تحكى لهن قصة هذا القماش . ففهمت كل سيدة مصرية استلمت قطعة القماش أنها هدية خاصة بها وحدها وبطبيعة الحال قامت بتفصيلها لكى ترتديها ففصلت كل واحدة . من السيدات « فستانا » أو « تيورا » أو معطفا أى تصرفت كل سيدة على حده بتفصيل القماش لنفسها ، وهى متأكدة أن السفيرة تعزها معزة خاصة ، وأنها لذلك اختصتها بقطعة القماش الفاخر فلم تقل أى سيدة للأخريات عن هذه الهدية شيئا . وبهذه الطريقة أصبحت كل سيدة مصرية تابعة للسفارة لها ملبس من نفس القماش . ولما عرفن قصة القماش ضحكن كلهن إذ فهمن أن معزتهن لدى السفيرة واحدة . ولكن ظهرت مشكلة وهى أين يرتدين هذه الملابس الجديدة إذ كانت معظم خروجاتهن الاجتماعية تجمعهن معًا وعادة يفقد قيمة الملبس وجماله إذا ارتدت أكثر من سيدة نفس الملبس أو ملابس مختلفة من نفس القماش فاتفقن على ألا يجتمعن بنفس الملبس فى مكان واحد ، وأصبح السيدات

يتفقن تليفونيا قبيل كل مناسبة تجمعهن ماذا سيرتدين حتى لا يأتين مُرتديات ملابس من نفس القماش . وكانت هذه نادرة من النوادر ، وزادت كثيرا من الألفة بين أعضاء السفارة وزوجاتهم .

وفي عهد سفير مصرى آخر تصادف أنه كان من بين أعضاء السفارة دبلوماسيون في العهد القديم — أى عهد ما قبل الثورة — وآخرون من العهد الجديد — أى عهد الثورة .

وكان كثيرا ما تحدث مشاجرات بينهم وكانت من عادتهم أن يلجئوا إلى أبى لكى « يفك الاشتباك » ، وعندما كانوا يتصلون به تليفونيا من السفارة ويقولون له : « تعال يا دكتور مؤنس فهناك مسألة بسيطة نحب أن نعرضها عليك » . كان أبى يفهم في هذه الأحيان أن هناك عراكا ما فكان ينزل بسرعة البرق ويصاحبه دائما سكرتير المعهد . وكان ينزل بسرعة لأنه كان يعلم أن هذه المشاجرات غالبا ما كانت تتحوّل إلى ضرب حقيقى ، وكان دائما يعرف كيف يسوى الأمور بين المتشاجرين ، ولم أسمعه يتكلم في البيت أبدا عن تفاصيل ما حدث لأنه كان يعتبر هذه الأشياء شخصية لأصحابها ويجب ألا يتكلم عنها أبدا . وكان من سماته أنه لا يحب النميمة ولا الخوض في سيرة الناس بل كان يطفئ الشائعات عندما يسمعها . والناس كانوا يعرفون أن سرّهم « في الحفظ والصون » معه . وأذكر أننى عندما كنت أذهب له وأقول إننى سمعت شيئا غير مرضٍ عن شخص معيّن فكان يسألنى

« هل رأيت بنفسك ؟ » فأقول « لا لم أره بل سمعت » . فكان يرد قائلا : « إذن فلا تتكلمى فى هذا الموضوع ولا تصدقى ما يقال . اتركى الناس تعش » .

المهم اكتسب أبى فى هذه الفترة فى أسبانيا وصف حمامة السلام ، وأصبح بعض المصريين يلجئون إليه لحل خلافات زوجية وكان غالبا ما ينجح فى تهدئة الأحوال .

وفى نفس عهد السفير المذكور طرأت فكرة جميلة بين أعضاء السفارة وهى أنهم يقومون بمباراة لعبة الشطرنج ، وفكروا أن يشترك فيها جميع رجال السفارة وأعضاء المعهد أى أبى والوكيل والسكرتير . ونظمت العملية بجدول للعب وكانوا يلعبون بعد الظهر – أى بعد ساعات العمل – سواء فى مقر السفارة أو المعهد ، وتعهدوا أن من يكسب فى النهاية – أى الفائز الأول – يفوز بكأس يشتركون كلهم فى شرائه ويقيمون له حفلا صغيرا .

وبدأت المباريات ثم التصفيات وأظهرت كثيرا من طبائع الأشخاص المختلفين فكان من الصعب جدًّا على بعض الناس أن يتقبلوا الخسارة فى لعبة الشطرنج هذه بطريقة رياضية .

وكان من أحسن اللاعبين سكرتير المعهد . وحدث أنه بعد التصفيات المتتالية أقيمت المباراة النهائية وكانت بين سكرتير المعهد وموظف كبير بالسفارة . وكسب الدورة سكرتير المعهد ، ولكن الموظف الكبير بالسفارة لم يقتنع أبدا بأن يعترف بأن رجلا أقل

منه فى الرتبة قد كسبه فى لعبة الشطرنج . ولكن — فى نهاية الأمر — حاز سكرتير المعهد الكأس المعهود وأقيمت له الاحتفالية المعهودة .

أذكر بهذه المناسبة أننا أنا وأخى كنا صغيرين فى هذا الوقت ولكننا كنا فى سن استطعنا فيها أن نتعلم لعبة الشطرنج وأن نتابع لعب من يكبروننا وأحببناها . وبعد ذلك كنا نلعبها سويا . وأذكر أن أخى غالبا هو الذى يكسب معظم الأدوار معي ، ولو حدث أننى كسبته فى مرة كان ينزعج جدا ، ولا يريد أن يكلمنى فلم يتقبل الخسارة بسهولة أبدا وكان يجب علينا أن نبدأ دورًا ثانيا حتى يكسبه هو ، فكان يعتبر هزيمته فى هذه اللعبة أمامى إهانة لرجولته .

وذكرت أمى حادثا كان وقع لأبى وهو أنه كان يعمل كثيرا جدًا فى إدارة المعهد وفى عمله الخاص أى قراءاته وكتاباته العلمية ، فكان دائما فى حالة إجهاد شديد . وحدث أنه فى يوم من الأيام سقط مغمًى عليه وهو فى مكتبه فنقلوه إلى البيت وطلبوا طبيبا ، وعندما كشف عليه طلب أن يقام له رسم قلب . فقيم به . ثم شخص التعب على أنه تعب فى القلب . لم يرض أمى هذا التشخيص لأنها كانت تعلم أن أبى لم يشك أبدا من قلبه ، ثم إن حالته لم تتحسن فاستمر وقتا طويلا يصيبه دوار إذا حاول القيام من الفراش . فاستدعت أمى طبيبا آخر . وشخص هذا الطبيب الثانى المرض على أن الموضوع متعلق بالأذن الوسطى وهى

التى تتسبب فى هذا الدوار . وكان تشخيص الطبيب الثانى هو التشخيص السليم . ومنذ ذلك الحين وأبى يضع فى أذنه دائما قطعة صغيرة من القطن عندما يخرج من البيت وكانت أمى تذكره دائما بها .

وأذكر أننا بعد أن عدنا إلى مصر نهائيا أصبح أبى يمضى نصف النهار خارج البيت سواء فى دار الهلال أو فى دار المعارف بعد ذلك ، فكانت أمى تخشى عليه من المشروبات التى قد يتناولها إذ أنها تعلم أن الفناجين والأكواب غالبا لا تغسل جيدًا ثم إن الشاى القاتم « الكشرى » لا يُشرب ومضر للصحة . فحلّت هى هذه المشكلة ، إذ كانت — كما قلت — تخشى عليه وعلى صحته كثيرا ، فكانت تحضر له فى كل صباح « تيرموسا » تملؤه بالشاى تصنعه بالطريقة التى يحبها هو . وأصبحت — عندما يغادر البيت فى الصباح —تسأله دائما : هل وضعت القطنة فى أذنك ؟ » فيقول : نعم . ثم تسأل : هل معك « التيرموس » ؟ فيرد قائلا : « نعم » . وأصبح هذان السؤالان بمرور الزمن بمثابة النكتة التى يتبادلانها عند مغادرته للمنزل فى كل صباح . فكان يخرج أبى ممسكا بكل من « التيرموس » داخل كيس من « النايلون » ثم الحقيبة الجلدية التى بها أوراقه وكتبه فى يده اليسرى وكان يترك يده اليمنى خالية . وأذكر أن كتفه اليسرى كان أوطأ بقليل من كتفه اليمنى وذلك بسبب حمله لحقيبة أوراقه المليئة بالكتب على



أبى وهو يصافح الجنرال فرانكو فى مدريد .

مدى عمر طويل فكان يحمل حقيبته بنفسه ونادرا ما يطلب من فراش أن يحملها إلا إذا أتى فراش من تلقاء نفسه وأخذها منه .

أما « التيرموس » الذى كان يأخذه معه فله قصص وحكايات وحده . فكم من مرة نسيه فى أماكن أو فى سيارات أجرة وتنزعج أمى وتشترى « تيرموسا » آخر . وكان أبى عندما يطلع من مكتبه ويجالس أحد زملائه فى مكتب مجاور يأتى وراءه فراش « بالتيرموس » هذا لأنه يعلم أن أبى لن يشرب شيئا إلا منه .

وكل هذه طرائف ونوادر كنا نتحدث عنها فى أيام الكويت الهادئة ونحاول أن نتذكر تفاصيلها . وعندما أفكر فى الأمر الآن أجد أن كثيرًا من الشخصيات التى اشتركت فى هذه « الحكايات » قد توفوا أو لم أسمع عنهم منذ سنوات طويلة ، وكل ما بقى منهم هى الذكرى وبعض اللمحات . وكان أبى يتذكر ويحكى ويضحك ، والذى كنت ألاحظه عليه دائما أنه لم يذكر أحدًا بالسوء أبدًا فإذا حاول أحد أن يؤذيه أو يؤلمه كان يتناساه تماما ولا يذكره أبدًا .

غيرة جامعية !

كنت أحيانًا – وبالذات بعد أن عاد هو وأمي إلى مصر نهائيا – أحكى له عن بعض متاعبى فى عملى ، فكان يقول لى : « لا تشغلى بالك بالموضوع واتركى هذا الشخص لربنا يجازيه وانظرى ماذا سيفعل به ربك . كنت أرى أبى دائما لا يسيء إلى أحد لا بالكلام ولا بالتصرف ، وكان يعمل ليلا ونهارا ويعيش حياته « فى حاله » كما يقولون . والظاهر أن نوع حياته ثم نجاحاته الكثيرة وحب الناس له كانت من الأشياء التى تثير الغيرة فى بعض الناس فيحاولون مضايقته . وأذكر على سبيل المثال أنه بعد أن عاد إلى مصر من الكويت عيِّن أستاذا غير متفرغ فى قسم التاريخ بآداب القاهرة أى فى القسم الذى تخرج منه ثم عُين فيه مدرسا ثم حصل على الأستاذية منه . وكان طول عمره يعتز بأستاذيته بجامعة القاهرة أكثر من اعتزازه بأى منصب آخر حصل عليه . المهم كان أستاذا غير متفرغ لأنه كان يعمل بالصحافة وله محاضرتان يلقيهما فى تخصصه إحداهما للسنة الرابعة والثانية فى السنة التمهيدية للماجستير . وكان إقبال الطلبة على محاضراته – كالعهد به دائما – شيئا لافتا للنظر . وحدث أنه كان هناك من يطمع فى محاضرتىْ أبى هاتين وبالذات أن معظم الخريجين الذين كانوا يستكملون

دراساتهم العليا كانوا يفضلون التسجيل لنيل درجتيْ الماجستير والدكتوراه مع أبي وكان ذلك لا يعجبهم بطبيعة الحال فلم تكن المسألة مسألة محاضرات ، لأن القسم فى ذلك الحين كانت به محاضرات أخرى كثيرة وكان من حظ الطلاب فى رأيى أن يدرس لهم أبي . المهم ، استمر هؤلاء « الزملاء » — وهم أصغر منه سنا وأدنى مكانة — فى محاولات إبعاده عن تدريس مواد تخصصه . وعُيِّن رئيس قسم لَبى لهم طلبهم فلم يجدد له فترة أخرى للاستمرار فى شغل منصب أستاذ غير متفرغ ، وحدث ذلك فى منتصف الثمانينات . ووصل الأمر لعميد الكلية حينذاك ولابد أنه رأى أن ما قام به رئيس القسم عمل غير أخلاقى ، ولكنه كانت له مصالح يجب أن يحققها ، وكان يريد الحصول على صوت رئيس القسم هذا فى مناسبات معينة فسكت على الأمر ناسيا أن لا شيء يتم فى الخفاء ولكن كل شيء مصيره أن يعرف وينكشف . وتوقف تدريس أبي فى قسمه وكليته لمدة سنة أو سنتين على ما أظن . وانزعجت أنا جدا ولكن أبى لم يفكر فى الموضوع ولم يعلق عليه ولم يشك لأحد ، بل مضى يواصل أعماله الكثيرة الأخرى وكأنه لم يحدث شيء .

وأذكر بهذه المناسبة أن اتصل بى تليفونيا بعد وفاة أبى مباشرة أحد هؤلاء الذين حاولوا أن يؤلموه فى قسمه فى منتصف الثمانينات وعزّانى وقال لى إنه سيكتب مقالا فى جريدة الأهرام عن أعمال أبى فى حياته وأنه حاليا يبحث عن المراجع حتى تكون لديه مادة

يكتب عنها . فاقتصر ردى على أننى شكرته وتممت المكالمة إذ لم أكن فى حالة نفسية تشجعنى حينذاك على الكلام مع أى إنسان . وفكرت بيني وبين نفسى أن هذا الإنسان ربما أراد الآن أن يصحح خطأه الماضى الظالم فأحيانا يجىء موت إنسان ما بنتيجة هى إيقاظ ضمير من حاول الإساءة إليه فى حياته . وحدث أن الوقت مرّ ولم يكتب هذا الشخص المقال الذى كان قد وعد به فى الأهرام ففهمت أنه لم يكن أبدا يفكر فى كتابة أى شىء ولكن كل ما حاول أن يحصل عليه منى هو أن أعطيه كتب أبى مجانا .. وأنه لذلك ذكر أنه يبحث عن مراجع . ففهمت من هذا أن هذا الشخص لا أمل فى إصلاح نفسيته وسلوكه . وأذكر أننى لم أذكر هذه الواقعة فى حينها لأحد وأذكرها هنا لأول مرة .

المهم ، حدث أن مدة هذا العميد الذى وافق على عدم مد عمل أبى فى كلية الآداب انتهت وكذلك انتهت مدة رئيس قسم التاريخ والرجلان اللذان حصلا على المنصبين فى المدة الجديدة — أى بعد منتصف الثمانينات — كانا قد أدركا الأمر عندما حدث فطلبا من أبى أن يعود إلى قسمه وكليته وألحا عليه فى ذلك فعاد أبى إلى وظيفة أستاذ غير متفرغ ولكنه رفض أن يأخذ محاضرات واقتصر على الإشراف على الرسائل . وأنا أحكى هذا لكى أبيّن أن أبى صادف فى حياته من حاول الإساءة إليه بسبب الغيرة — على ما أظن — فأبى كان رجلا يعيش حياته فى حاله ولا يتدخل فى شئون غيره .

وأذكر مثالا آخر وهو أن قسمه بآداب القاهرة لم يرشحه لنيل جائزة الدولة التقديرية ومن قام بترشيحه حينذاك — في عام ١٩٨٦ — كان قسم التاريخ بجامعة الزقازيق . وحدث أن أبي رشح مرة واحدة عندما جاء وقت التصويت في المجلس الأعلى للثقافة وافق الجالسون على منحه الجائزة بالإجماع ومن المرة الأولى . ولم يغضب أبي على المسئولين عن القسم بآداب القاهرة في هذا الوقت أبدا بل تناسى الأمر تماما وفرح بجائزته . وأتذكر أنه كان هناك من لاحظ بطبيعة الحال أن ترشيحه لم يأت من جامعته فكان يتجنب الرد المباشر على هذا السؤال حتى لا يسيء الكلام حتى على من حاول أن يؤذيه لسبب لا يعرفه ، إذ أن أبي لم يكن له أعداء وأنا لا أتذكر أنه حاول إلحاق الأذى بأي إنسان في حياته لا عن طريق الكلام ولا الفعل .

أذكر أن الرئيس حسني مبارك أقام احتفالا كبيرا لتسليم جوائز الدولة التقديرية للحاصلين عليها خلال فترة الثمانينات ، وأذكر أنني تسلمتها بالنيابة عنه ، لأنه كان يعلم أنه ليس في استطاعته صعود السلالم المؤدية إلى منصة تسليم الجائزة في دار الأوبرا بسبب آلام ركبتيه .

وتحضرني هنا سعادة أبي بحرية الفكر والتعبير التي نعيشها في مصر في عصر الرئيس حسني مبارك وصرح بذلك في كثير من حواراته بالراديو وكتب عنه في مقالاته الصحفية .

وفيما يخص الرئيس الراحل أنور السادات فكان يحترم جرأته

وشجاعته في اتخاذ القرارات الحاسمة . أذكر أنه قدم تحليلا مطولا عن « كتابه البحث عن الذات » . أما بخصوص الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فكان معجبا بشخصية الرجل ، والحقيقة أن مكتبة أبي تحتوى على كتب عديدة عن شخصية عبد الناصر نفسه . وكان متحمسا جدا للثورة في بدايتها وفي مرحلتها الأولى أى حتى حرب السويس ١٩٥٦ .

المهم ، بخصوص الإساءة لأبي من طرف بعض « الزملاء » بقسم التاريخ الحمد لله تحسنت وانصلحت الأمور وحدها وبسرعة على يد رجال معدنهم أجود ممن سبقوهم . ومنذ ذلك الحين – أى بعد منتصف الثمانينات – ومعاملة قسمه وكليته كانت والحمد لله على ما يرام فسوء النية كان ناتجا عن أفراد قليلين اختفوا من الجامعة لسعيهم وراء مصالحهم الخاصة . وهذا يظهر أن حياة أبي لم تكن سهلة كما يبدو للبعض بل صادف صعوبات مثل كل الناس ، ولكن عرف كيف يتصرف في المواقف الصعبة .. فنادرا ما عرفت أحدا يفهم الطبيعة البشرية ويتقبلها كما هى مثله .

كان – كما قلت – ينسى تماما من حاول الإساءة إليه ولكنه في نفس الوقت كان دائما يذكر من مدّ إليه يد العون فكان عظيما في اعترافه بالجميل ولا ينساه أبدا .

وأذكر بهذه المناسبة أنه كان كثير الاعتراف والكلام على المعاملة الممتازة التى رآها في معاملة كل من أسندت إليه إدارة دار المعارف

طوال مدة عمله فيها . وأذكر أنه خلال عمله فى مجلة أكتوبر جاءت له دعوة من جريدة الأهرام لينضم إلى أسرتها ويصبح كاتبا بها . فشكر كثيرا من قدم له هذه الدعوة ولكنه اعتذر قائلا : إنه سعيد بكتابته لمجلة أكتوبر ولا يستطيع أن ينسى معاملتهم له فيفضل أن يستمر معهم . وكان صريحا فى قراره مع أن حلم كل مثقف فى مصر أن ينضم فى يوم من الأيام إلى أسرة جريدة الأهرام ، ولكنه كان لا ينسى الوفاء لمن أحسن معاملته .

يحضرنى بمناسبة ما رويته عن الأهرام أن أبى كان يسهم بمقال شهرى لمجلة الشباب إلى جانب كتابته فى أكتوبر . وكان أيضا يذكر رئيس تحريرها بالخير دائما وبالمناسبة : من يستطيع أن يذكر رئيس تحرير مجلة الشباب إلا بالخير ؟

ولم يذكر أبى بالخير كل من أحسن معاملته فقط بل ذكر بالخير أيضا كل من رآه يقوم بعمل صادق ونافع لمصر وأحسن دليل على هذا هو الكتاب الذى ألفه يصف فيه الكثيرين ممن رآهم فى وظائف حكومية وعملوا بصدق من أجل مصر وساهموا فى تكوينها حتى أصبحت على ما هى عليه الآن وهو كتاب جيل الستينات (١٩٩٢) وأنا أندهش عندما أرى أن مكتبة الأسرة لم تنشر هذا الكتاب ضمن الكتب التى صدرت فى مشروعها بالذات .. لأنه مشروع ناجح وسيحقق بالزمن أهدافه وهو زرع حب القراءة فى الناس ثم تعويدهم على احترام الكتاب وكان

الكتاب المذكور يزوّد القارئ بمعرفة بعض من يرجع الفضل إليهم في إنشاء بلدنا مصر كما نراها اليوم .

ويذكرني ذلك بموقف مذهل ومؤسف : أذكر أن أبي وأمي كانا قد رجعا إلى مصر من الكويت وكان أبي قد شحن كتبه في صناديق لتصل مصر بالباخرة . ثم علمنا بميعاد وصولها إلى ميناء السويس وذهبت أنا معه لاستلامها . وفتحت السلطات الصناديق لكي يتأكدوا من أنها لا تحتوى على شيء آخر غير الكتب ثم لكي يروا نوعية هذه الكتب . وبعد أن تم التفتيش وكانت نصف الكتب خارج صناديقها على رصيف الميناء طلبوا منا أن نذهب لمكتب الضابط المسئول لإتمام بعض الأوراق الرسمية . فذهب أبي وحده وتركني أحرس الكتب . ثم جاء ضابط كان قد رآني من قبل وسألني : « لماذا تقفين هنا ؟ »

قلت : « لأن أبي ذهب ليضبط الأوراق الرسمية ويدفع الضريبة المطلوبة » .

قال : ولماذا لا تذهبين معه ؟ »

قلت : « لأنني فضلت أن أحرس الكتب حتى يعود » .

فضحك بشدة وقال : « هل تخشين على الكتب فعلا ؟ هيا اذهبي مع أبيك وعندما ترجعين ستجدين أن عدد الكتب قد زاد » . حدث ذلك بعد منتصف السبعينات بقليل . ومن المؤكد أن مشروع السيدة الفاضلة سوزان مبارك — وهي منشئة مشروع

مكتبة الأسرة – سوف يقضى على مثل هذا الجهل بقيمة الكتب والقراءة .

وبمناسبة ذكر الكتب أيضًا أذكر أن أبى كان يحب كتبه وكأنها أبناء له وكان يفتخر جدًا بمكتبته . وكان يعرف تماما الكتب التى فيها ويعرف أيضًا أين موقعها فى المكتبة لو بحث عن كتاب فيها حدث أنه فى عام ١٩٩١ فكر فى إهداء مكتبته لأنه أدرك أن بصره أصبح متعبا من القراءة الكثيرة ثم أنه كان يريد أن يطمئن على مصير مكتبته فى المستقبل . فاحتفظ بثلث مكتبته تقريبا وأهدى الباقى لكلية الآداب بجامعة القاهرة . وحدث أن كلية الآداب رحبت جدا بالإهداء وشكرته كثيرا على ذلك . ثم مضى وقت طويل ولم نسمع بأى خبر يشير إلى نقل المكتبة واستلامها . فبعد مرور بعض الوقت ظن أبى أنهم ربما نسوا قبولهم للهدية . فذهب إلى رئيس هيئة الكتاب – إذ كان يعزه ويحترمه حقيقة – وقال له إنه يريد إهداء مكتبته للهيئة – فرحب رئيس الهيئة بالهدية وكان سريع التصرف فى الموضوع ، وبلغ الأمر كلية الآداب فانزعجوا من الخبر جدا وقالوا : كيف يحدث هذا ؟ .. فالإهداء كان موجها أصلا لهم وهم أولى بها ، وإن كانوا قد تأخروا فى التصرف فيرجع ذلك إلى أنهم كانوا يبحثون عن مكان ملائم تنقل المكتبة إليه .

ونقلت مكتبة أبى بالفعل إلى جامعة القاهرة فى عام ١٩٩٢ وصُنفت كتبها على أرفف فى المبنى الجميل الذى بجوار شارع

النيل والذى يحتوى على مركز الدراسات الشرقية . وبعد أن تمت هذه العملية رأيت أن أبي شعر براحة وبارتياح بخصوص مكتبته فكان قد ضمن أمانها وهى فى حوزة استاذ يعرف قدر الكتاب وقيمته ، وكان أبى فى صحة جيدة عندما قام بإهداء المكتبة ولكن ربما كان يشعر حينئذ أن ميعاد رحيله قد قرب ، لأننى أتذكر الآن أنه فى نفس هذه الفترة تقريبا كتب مقالا لمجلة أكتوبر سماه « لماذا نخشى الموت » . رحمه الله كان إنسانًا حساسًا جدًّا ولماحًا كذلك . أذكر أنه لم يغادر المنزل فى السنوات الثلاث والنصف الأخيرة من عمره ، لأنه كان يشعر بآلام فى رقبته فمنعه ذلك من الخروج كما أننا كنا نخشى عليه من صعود ونزول السلالم ، وكنت أنا أسكن فى البيت مع أبى وأمى وآتى له بأخبار من الخارج فقررت ألا أحكى له عن متاعبى حتى لا يحزن فكان ينزعج ويحزن من أجلى بطريقة لم يحزن بها ولا ينزعج من أجل نفسه أبدا . فكنت أحكى له ما يَسُرُّه فقط ، ولكننى كنت ألاحظ أنه كان ينظر إلى طويلا ويفهم ما يدور فى بالى .. فلا يفاتحنى فى الموضوع بل يلمح من بعيد فأفهم أنه كان على دراية تامة بما أفكر فيه أو أشعر به .

كان أول ما فعله أبي بعد عودته مباشرة من الكويت أن استلم عمله في دار الهلال رئيسا لتحرير مجلة الهلال وكانت دار الهلال هي الدار التى كان قد بدأ فيها حياته فى الصحافة حينما كان لا يزال طالبا فى كلية الآداب وعمل فى ذلك الوقت مع جورجى

زيدان مؤسس الدار وأعلم أنه كتب قصة بداياته فى مجال الصحافة فى جزء كبير من المقالات التى كان يكتبها شهريا لمجلة الشباب فى الثمانينات المهم ، استلم أبى عمله فى دار الهلال وتحمس له كثيرا إذ كان يريد تغيير إخراج المجلة وتكبير صفحاتها وحجم الحروف التى تطبع بها حتى يُسهل القراءة فيها .

وأذكر أن أمى كانت تقود السيارة وتوصله إلى الدار بالسيدة زينب صباح كل يوم ، ثم تمر عليه مرة أخرى بعد الساعة الواحدة لكى تعيده إلى البيت ، فلم يكن هو يستطيع القيادة فى شوارع مصر ولم يطلب أن يخصصوا له سيارة بسائق وكانت أمى مهتمة بمجلة الهلال هذه مثله ، فأذكر أن أبى أضاف بالمجلة بابا اسمه « ناس وصور وحكايات » وكانت أمى هى التى اختارت معظم الصور التى ظهرت فى هذا الباب ، وكان أبى يعلق عليها على مدى أربع سنوات تقريبا وهى المدة التى عمل أبى فى دار الهلال ليتركها وينقل لدار المعارف كاتبا فى مجلة أكتوبر .

أذكر أنه كان مشغولا دائما بإعداد العدد الشهرى وأنه كان يقول إن شهره فيه يوم واحد وهو يوم صدور المجلة أول كل شهر .

وفى رأيى أن من أهم ما قام به أبى بالنسبة لمجلة الهلال فى هذا الوقت أنه أحياها فكانت قد « نامت » « ونُسيت » إن كان من الممكن استعمال مثل هذه التعبيرات لوصف حالتها فى منتصف

السبيعينات . كان أبى يعتنى جدًّا بغلاف المجلة .. وأذكر أن الفنان حسين بيكار رسم له أول غلاف لها وهو عدد يوليو ١٩٧٧ . أنه فتح مجالات كثيرة للكتابة فى المجلة حينذاك ومنها مجال كتابات المرأة التى كانت تكاد لاتذكر فى هذا الوقت وأجريت أحاديث صحفية مع السيدة أمينة السعيد رحمها الله وأحيا موضوع هدى شعراوى وتحرير المرأة ، وأجرى أحاديث أخرى مع الدكتورة لطيفة الزيات رحمها الله عن روايتها الباب المفتوح ثم حديثا آخر مع الدكتورة سهير القلماوى عن كتابها حكايات جدتى وسمى الكاتبات الثلاث الرائدات فى كتابات المرأة . وأذكر أنه عندما أرسل إليهن صحفيين لإجراء الاحاديث معهن اندهشت كل واحدة ، منهن على حدة لأن موضوع كتابات المرأة لم يكن يطرق منذ زمن طويل .

وأذكر أنه نشر رواية « أريد حلا » للكاتبة الصحفية حسن شاه وصورت هذه الرواية فيلما وفيما بعد حقق نجاحا كبيرا وأثر بعد ذلك . — كما هو معروف — على تغيير بعض قوانين الأحوال الشخصية بالنسبة للسيدات . ونشر كذلك كتابات الكاتبة كاتيا ثابت التى تتناول فيها قضايا المرأة فى سلسلة روايات الهلال مثل كتاب لاعزاء للسيدات .

وأذكر بهذه المناسبة أنه كان كثير الاحترام والاهتمام بالمرأة ومكانتها ودورها فى المجتمع وكان مؤمنا بأن وضع المرأة فى مجتمعها يبين مدى تقدم بلدها أما بالنسبة لى فكان يقف معى

وقفة المحامى الجرئ القوى الغيور جدًّا فى مشاكلى الشخصية وكان يتخذ هذا الموقف أولا لأننى امرأة .. وكان يرى أننى فى حاجة إلى مساندة رجل ، وثانيا لأننى ابنته ويعرفنى ويعرف موقفى ويعرف وضعى تماما — رحمه الله — كان نعم الأب والصديق وكان لا يبالى بالخسائر المادية فهذه فى رأيه من الممكن تعويضها قدر حزنه على الخسائر المعنوية وانكسار النفس .

اهتم أبى أيضًا فى مجلة الهلال بموضوع التعليم الثانوى فى مصر وأضاف ملفًا خاصًّا بالثانوية العامة فى كل عدد من أعدادها الشهرية . أما من أهم الأشياء التى قام بها فى المجلة كان أن شجع الكتّاب الشبان على التأليف وعلى النشر عنده فكانوا فى ذلك الوقت يشكون الكثير من أنه لم يكن أحد يبدى نحوهم أى اهتمام .

أذكر أيضا أنه كان مهتما جدًّا بأن يكون كتاب الهلال ذا موضوع مهم وإن لم يجد موضوعا جديدًا أعاد طبع كتاب مترجم نشر من قبل .



أبى مع الأستاذ رشدى صالح وعمدة مدينة قرطبة فى أسبانيا .

قبل الميعاد . دائما !

وأذكر كذلك أن أول مرة أكتب أنا فيه مقالا باللغة العربية نشره لى فى مجلة الهلال ، وكان يشجعنى كثيرا على الكتابة بالعربية وكنت أراجع كتاباتى معه إذ كنت أجلس أمامه على مكتبه وأقرأ له ما كتبته بصوت عال وكان يحدد أنه يريد القراءة مُشَكَّلَةً . والصفحات التى أكتبها الآن هى أول شىء أكتبه بالعربية بعد وفاته ولن يراجعه هو معى كما جرت العادة بيننا .

المهم أنه أحيا مجلة الهلال وجعل لها حضورا فى السوق لذلك عندما طلب منه رئيس تحرير مجلة أكتوبر — وهو كاتب عظيم وصديق قديم لأبى وهو بالمناسبة من الكتّاب المفضلين لدى منذ قديم الزمن ومعه إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ ويوسف إدريس رغم اختلاف كتاباتهم — أن ينضم لدار المعارف لم يتردد كثيرا لأنه رأى أنه كان حقق ما يريد تحقيقه وهو أن يعيد إثبات وجود مجلة الهلال وكتاب الهلال وروايه الهلال فى السوق تقديراً لمن تعلم منه وعمل معه أيام زمان أى أيام جورجى زيدان . وبهذه المناسبة أذكر أنه استمر على صلة وثيقة بإميل زيدان وكان يراه تقريبا كل عام بالإسكندرية حيث كان يقيم .

أذكر أن أبى كان دائما يبدأ أعماله بأهداف معينة يريد أن يحققها وأنه عندما كان يحقق الغرض الذى كان ينويه لم تكن من الصعب عليه أن يترك « كرسى السلطة » فالمناصب فى حد ذاتها لم يكن تهمه بل كان يهتم أكثر بالامتيازات المرتبطة بالمناصب التى كانت تساعده على تحقيق ما فى خياله ، فلم أسمعه قط يقول إنه يتمنى لنفسه منصبا معيّنا أو أنه يريد أن يكون رئيسا لمؤسسة أو وزيرًا مثلا — وهو حلم الكثيرين اليوم — فلم يدر هذا بباله فكل اجتهاداته كانت من أجل العلم فى سبيل تحسين أحوال مصر وتثبيت أهميتها ومكانتها بالنسبة للعالم وخلال حياته كلها كان يضع لنفسه أهدافا يحققها من أول فكرة إنشاء معهد مصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد فى الأربعينات ومشروع الألف كتاب بوزارة الثقافة فى الخمسينات إلى أطلس تاريخ الإسلام فى الثمانينات .

كان لأبى إلى جانب الصحافة فى هذه المرحلة من حياته عمله المفضل وهو محاضراته فى الجامعة ثم إشرافه على رسائل من أراد أن يتقدم لدرجة الماجستير أو الدكتوراه ، وكان يشرف بالفعل على رسائل داخل مصر وخارجها . أذكر أنه كان صبورًا جدًّا مع طلابه ويستمع لما كتبوه كلمة كلمة .. ولا يصحح لهم المعلومات والأخطاء اللغوية بل كان يمرنهم على اكتساب أسلوب فى الكتابة .

وإلى جانب الجامعة كانت لديه المجالس التى كان عضوًا فيها وكان كثير الانتظام فى حضور جلساتها مثل المجلس الأعلى

للصحافة . والمجلس الأعلى للثقافة حيث كان يحضر الجلسات في أول يوم أحد من كل شهر — على ما أظن — وكف عن حضور اجتماعاته في آخر ثلاث سنوات ونصف من عمره أى منذ شهر ديسمبر ١٩٩٢ . وكان كثير الامتنان لأمين المجلس الحالى الذى أحدث إحياء حقيقيا في الحياة الثقافية المصرية والذى كان أحيانا يسأل أبى تليفونيا عن أمور تخص أعمال المجلس الأعلى للثقافة . كان أبى يقدر مثل هذه المعاملة جدًا .. وبالذات أنه من يوم أن اضطر لملازمة البيت لسبب صعوبة المشى على قدميه لم يسأل عنه إلاّ من كان يقدره فعلا أو كان صديقا حقيقيا له والحمد لله كانوا كثيرين ، أما بعض الناس الذين كنا نعتبرهم مقربين إلينا فاختفوا من خريطة حياتنا تماما . أظن أننى ذكرت فى هذه الصفحات من قبل أن الزمن والموقف قديران على أن يكشفا حقيقة الناس فليس هناك شيء يستمر خافيا إلى ما لا نهاية وهذا كان رأى أبى .

أما المجلس الثالث الذى كان يحب حضوره حقيقة فكانت اجتماعات مجمع اللغة العربية حيث كان يذهب يوم الاثنين من كل أسبوع ، وكان يتجه إلى هناك على قدميه إذ مقره قريب من البيت . وعندما بدأ يشكو من آلام في ركبتيه أصبحت أمى ترافقه فكان يمسك بذراعها ويمشيان معًا المسافة . والجميل فى هذا الموضوع أنه بعد أن منعته آلام الركبتين من الذهاب شخصيا إلى المجمع استمر الدكتور ابراهيم مدكور رحمه الله وبعض أصدقائه وزملائه هناك يسألون عنه تليفونيا بصفة مستمرة .

وكان يلتزم بالمواعيد فى حضور جلساته هذه فيصل دائما قبل الميعاد المحدد ولا يتغيب عن الاجتماعات ولا أتذكر أنه تأخر مرة فى حياته عن أى ميعاد محددة فالمواعيد بالنسبة له كانت تحترم لأن احترام المواعيد يعبر عن احترامه للشخص الذى سيقابله وكذلك كان تعبيرا على احترامه للعمل الذى سيقوم به . وكان لذلك يغضب كثيرا إن حدد له أحد ميعادا وتأخر عنه ساعة أو أكثر — كما هى العادة فى مصر عند كثير من الناس — ويصل معتذرا بكلمة « معلهش » . كان فى هذه الحالات يتجنب المواعيد مع مثل هذا الشخص ، واحترامه للمواعيد يرجع إلى أن الوقت فى حد ذاته كان يمثل له قيمة معنوية وأخلاقية . كان أيضا يحتقر الصفات الدنيئة فى الإنسان مثل الكذب والنفاق واللؤم والغدر والسرقة وصفات أخرى يعتبرها البعض اليوم صفات تضفى « شطارة » وذكاء لصاحبها .

أما أمى فكانت توافق أبى فى جميع آرائه فلو سألتها أنا عن رأى فى شىء كانت تقول : « استمعى لابيك فهو لديه الرد الصح والرأى الصح فى كل شىء » كانت تؤمن بآرائه وتصرفاته دائما .. وكانت دائما مقتنعه تماما بما يقوله وكان هذا موقفها منه منذ تزوجا حتى آخر يوم فى حياته . أما هو فكان يثق فى رأيها خصوصا فيما يخص آراءها عن بعض الناس ، فإن سألها عن شخص معيّن كانت ترد وتقول على سبيل المثال : « الظاهر منه مقبول ولكننى أشعر فى أعماق نفسى أنه منافق وغير صادق » ..

كانت تستند فى هذا على مانسميه « الحاسة السادسة » وتمر الأيام بل السنوات ويتضح أن أمى كانت على حق . وأكثر ما كنت أحترمه فى العلاقة بينهما الصراحة والثقة التى كانا يتبادلانها ولم أشعر أبدا أن هناك حواجز تقف بينهما أو سيطرة من طرف على الآخر .

أما فترات بعد الظهر فكان يخصصها أبى لعمله العلمى الخاص وكان يجلس على مكتبه تقريبا من الساعة الثانية حتى الثامنة مساء بصفة متواصلة . وأنتج فى هذه المرحلة من عمره مؤلفات عديدة فى تخصصة وهو التاريخ الإسلامى ومنها أعمال أدبية ثم مؤلفات دينية يربط فيها ما بين الدين الإسلامى وحياتنا اليومية ، هذا إلى جانب أبحاث عديدة اشترك بها فى مؤتمرات ، ومقالات عديدة ساهم بها فى مجلات الهلال وأكتوبر والشباب ومن أهم إنجازاته كان أطلس تاريخ الإسلام (١٩٨٧) وتاريخ قريش (١٩٨٨) وسيرة الرسول محمد ﷺ بالإنجليزية (لم ينشر بعد) وأذكر من أعماله الأخرى على سبيل المثال أحاديث منتصف الليل (١٩٧٧) ، قصة أبو عوف (١٩٨٠) ، ابن بطوطة ورحلاته (١٩٨٠) ، دراسات فى السيرة النبوية (١٩٨٥) ، الربا وخراب الدنيا (١٩٨٦) ، حكايات من أيام زمان أربع روايات قصيرة (١٩٨٧) ، الإسلام الفاتح (١٩٨٧) ، تاريخ المغرب وحضارته (١٩٩٠) ، الكعبة المشرفة والاعتداء عليها (١٩٩١) ، دستور أمة الإسلام (١٩٩٣) ، الإسلام فى عشرين آية (١٩٩٣) ، عصر الفتوات (١٩٩٣) ،

جيل الستينات (١٩٩٢) ، صور من البطولات العربية والأجنبية (١٩٩٣) ، تاريخ موجز للفكر العربي (١٩٩٣) وغيرها .. ثم نشر أيضا بعض التحقيقات العلمية مثل كتاب الحلة السيراء لابن الأبار (١٩٨٥) وكتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر لمؤلف مجهول (١٩٩١) وكتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسي (تحت الطبع) وغيرهم . ثم ألّف كذلك كتبا للأطفال مثل كتاب المخترع الصغير في جزءين (١٩٨٩) .

إنني ذكرت هنا بعض الأعمال الأدبية لأبي وهي معظمها مجموعات قصص قصيرة وروايات قصيرة من نوع « النوفيلا » . وأذكر أنه كان يعتبر نفسه هاويا بالنسبة للكتابات الروائية فلم يسمح له وقته أن يعطي لكتابة الأدب وقتا أكثر لكي يتطور وأذكر أنه كتب رواية واحدة في الخمسينات اسمها أهلا وسهلا (١٩٨٥) ومسرحية في ثمان مشاهد اسمها الطريق الأبيض (١٩٦٣) . موهبة التأليف الأدبي كانت لديه ولكن – كما يقال – كل شيء له حدوده .

وهنا أقف وقفة وأتساءل بدون أن أقصد إحراج أحد أو إلقاء اللوم : هل يكفي تكريم مثل هذا العطاء الثرى المتواصل لمصر بجائزة تقديرية فحسب ؟ إن أبي توفي منذ عام تقريبا ولا ألاحظ أي مبادرة من قبل أي هيئة حكومية لتكريم اسمه وتخليده إلاّ من قبل دار المعارف لماذا يا ترى ؟ وماذا يكون مصير مصر بدون

رجال من طراز أبى ؟ وما هو رأى الشباب الطموح اليوم عندما يرى أن هذا جزاء من عمل في سبيل بلده ؟ !

إننا فى خلال فترة إقامتنا فى الكويت وحتى بعد عودتنا إلى مصر نهائيا كنا نمضى العطلة الصيفية فى الإسكندرية . واستمررنا فترة طويلة نقيم بفندق « بوريفاج » بجليم وبعد أن باعه صاحبه حولنا إقامتنا إلى فندق « فلسطين » بالمنتزه ، وكان أبى لا يعمل خلال شهر أغسطس بأكمله حتى يستعيد قوته للسنة القادمة . أما أمى فكانت تستريح لفترة شهر من أعمال البيت ومطالبه وكان أبى قد اختار هذين الفندقين : لأنه كان يعلم أن معظم أصدقائه كانوا ينزلون فيهما وأذكر أنه كان يحب جداً فندق « بوريفاج » ، لأن أحد أعز أصدقائه كان يقيم فى شقة قريبة منه ، فكان فى استطاعته أن يراه كل يوم وكان يتذكر مع صديقه هذا طرائف ونوادر من أيام زمان . فكان — على سبيل المثال — يذكر صديق أبى ما حدث فى السفارة بروما فى إيطاليا عندما كان سفيرا هناك من سنة ١٩٦١ حتى ١٩٦٧ . وذكره بأشياء بعيدة فى الزمن مثل واقعة الجاسوس الإسرائيلى فى عام ١٩٦٢ .

وحكى لنا أكثر من مرة أن الحكومة المصرية حينذاك كان لها قسم للمخابرات فى كل سفارة مقيما بذاته ولا دخل للسفير فى عمله . وكان بالسفارة فى روما قسم للمخابرات يعمل فى الطابق الثانى من المبنى . وحدث أن رئيس قسم المخابرات هذا لفت نظر السفير حينذاك — وهو صديقنا — أن الأمن بالسفارة غير كاف



أبى مع الأستاذ صالح جودت عند زيارته لأسبانيا .

وأنه يقترح بأن ينضم بعض رجاله — وهم كثير — إلى رجال الأمن عند بوابة دخول مبنى السفارة ووافق صديقنا السفير على ذلك .

وبمجرد أن وافق قام رئيس مكتب المخابرات المصرى هناك بالقبض على أحد الجواسيس الإسرائيليين فى روما فى السر وأدخله في الخفاء داخل السفارة . ثم حقنوا هذا الجاسوس بمخدر وأدخلوه تابوتا وفكروا أن يشحنوه إلى مصر بالطائرة المصرية . قام رئيس المخابرات المصرى بالسفارة بكل هذا بدون أن يخبر بذلك صديقنا السفير وبما أن بعض رجاله كانوا يقفون مع حراس أمن السفارة على بوابة الدخول فاستطاع أن يعمل فى السر .

وحدث أنهم وضعوا التابوت وبداخله الجاسوس المخدر داخل سيارة نقل . وكان الطريق من مقر السفارة إلى المطار طويلا جداً ومليئا « بالمطبات » . فأفاق الجاسوس الإسرائيلى من المخدر وهو داخل التابوت . وعند إخراج الصندوق فى مطار روما لشحنه على الطائرة المصرية سمع رجال البوليس الإيطالى صراخ الجاسوس داخل الصندوق وكان المخبرون المصريون يقولون لهم إنها أصوات آلات موسيقية يرسلونها إلى مصر . فأصرت السلطات الإيطالية على فتح الصندوق وأفرج عن الجاسوس من حبسه وكانت مسألة محرجة وبالذات أنه لم يعرف أحد أن هؤلاء المصريين مخبرون ، فكانوا يستعملون أسماء « حركية » ويظهرون أمام كل الناس على أنهم من أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى .

الليلة الأخيرة !

إننى أكتب كل هذه الصفحات وأنا جالسة على مكتب أبى الذى كتب عليه مؤلفات المرحلة الأخيرة من عمره . وراء المكتب توجد مكتبتان بهما مراجع أساسية مثل القواميس ودوريات المعارف وبين المكتبتين هناك صورة كبيرة لمنظر طبيعى وبرواز به شهادة الدكتوراه التى نالها أبى من جامعة زيوريخ بسويسرا . وأمام المكتب على الحائط يوجد دولاب صغير فوقه تمثال صغير للفيلسوف الأندلسى ابن رشد (وتمثال ابن رشد المذكور هنا هو نموذج مصغر للتمثال الذى أقامته بلدية قرطبة بأسبانيا لفيلسوفنا العظيم فى منتصف الستينات) . وأمامه كرسيان ومنضدة صغيرة عليها الصحف اليومية وكان أبى يقرؤها فى هذا المكان . والمكان كله مزين بالنباتات الظلية . أما على يمينى فهناك شباك كبير يطل على النيل . وعلى ضفة النيل الأخرى أرى مبنى هيئة الكتاب ثم طريق الكورنيش المؤدى إلى شبرا الخيمة . هنا كان يجلس أبى ساعات طويلة منهمكا فى عمله وسعيدا به ومتمنيا مستقبلا مشرقا لمصر التى كان يعشقها .

وأذكر وأنا جالسة فى هذا المكان أنه كان يقدر كثيرا ما قام به رئيس هيئة الكتاب الحالى من أجل إحياء الهيئة كمؤسسة ،

والحيوية التى أضفاها للمعرض السنوى للهيئة مما رفع من شأن الكتاب في مصر كثيرا ومن شأن مصر كمركز ثقافى للعالم العربى ، وأنا أندهش حينما أتذكر أننا لم نتلق أىَّ تعزية من قبل المسئولين على هيئة الكتاب عند وفاة أبى رغم أن معارفه وأصدقاءه هناك كانوا كثيرين . لماذا يا ترى ؟ ..

وأذكر بهذه المناسبة علاقة أبى بالناشرين — وكانوا مصريين ومن بلاد عربية — وكانوا يحبون التعامل معه ويسعون لذلك وسبب ذلك أنه كان سهل التعامل معهم ولا يعقد الأمور ومعظمهم أصبحوا من أصدقائه وكانوا يلجئون إليه فى الكثير من أمور نشر كتبهم ، أما السبب الثانى فكان أن كتبه كانت تباع لأن قراءه كانوا كثيرين . أذكر كذلك أننى فى مرة ذهبت لأشترى كتبا من مكتبة هنا فى القاهرة ولسبب ما تركت لصاحب المكتبة اسمى ورقم تليفونى وعندما قرأ اسمى سألنى : « هل أنت ابنة الدكتور حسين مؤنس ؟ » قلت : « نعم » قال : « إن أباك نشر كتبا عند جميع الناشرين الكبار فى مصر إلا عندى . ولا أعرف السبب . سلمى عليه فهو يعرفنى وقولى له يأتينى بأى كتاب من كتبه أنشره حتى لا أشعر أننى فى نظره أقل من الآخرين » ..

أذكر أيضا أنه كان كل سنة يحضر بنفسه المعرض السنوى لهيئة الكتاب حتى يرى كتابا جديدا منشورا له ومعروضا لدى أحد الناشرين . كان يحب أن يراه معروضا بنفسه .

من ضمن الطرائف والنوادر التي حدثت لبيتنا في الثمانينات أذكر - على سبيل المثال في مرة من المرات استلمت أمي سيارتها بعد إصلاحها من عند « الميكانيكي » . فاقترح أبي أن يذهبا إلى الطريق الصحراوي حتى يجرباها فقادت أمي السيارة منطلقة في هذا الطريق ، وإذا ببعض رجال الشرطة يوقفونهما ويصاحبونهما إلى نقطة شرطة الهرم . وقال المسئول لأبي : « ماذا كنت تنوى أن تفعله مع هذه السيدة الأجنبية في الصحراء ؟ » .

فقال أبي : « أنا فلان الفلاني وهذه زوجتي وكنا نجرب « موتور » السيارة .

قال المسئول : « أين أوراقك الشخصية التي تثبت ذلك » ؟ ..

فبحث كل من أبي وأمي عن بطاقته الشخصية ووجدا أنهما قد نسياها في البيت . فضحك المسئول وقال : « رأيت ؟ ليس معك مايثبت كلامك ونحن هنا ملزمون بأن نحجز عليكما حتى يتضح الأمر » وحاول أبي وأمي أن يتصلا بالبيت ولم يجدا أحدًا به . فانتظرا بالقسم أكثر من ساعة حتى وصل مسئول آخر تعرف على أبي في الحال ، إذ كان من قرائه واعتذر له وتركه يذهب هو وأمي ..

أذكر أيضا أنه في أواخر الثمانينات صاحبت أبي إلى السعودية إذ كان يعالج عينه اليمنى من المياه البيضاء في مستشفى العيون بالرياض ، فكان يخشى التمريض في المستشفيات المصرية وكان

قد تناول هذا الموضوع فى كثير من مقالاته إذ عانى هو منه كثيرًا . عرض على أن أصطحبه ، لأنه كان يريد أن أقوم بأداء العمرة معه . أذكر أنه فى هذه السنوات كانت ركبتاه قد بدأتا بإيلامه عند المشى ، فكان يمشى ولكن الكثير منه كان يسبب له آلاما شديدة ..

أذكر أننى قمت معه بأداء العمرة قبل الفجر بقليل ، وأننا صلينا الفجر فى مكة المكرمة وقمنا كذلك بزيارة المسجد النبوى بالمدينة المنورة وكانت من أجمل اللحظات التى عشتها فى حياتى . المهم قام أبى بتأدية مناسك العمرة على قدميه من الطواف حول الكعبة إلى السعى بين الصفا والمروة ونسى تماما آلام ركبتيه . كان مؤمنا إيمانا صادقا عميقا . واعتمر فى حياته مرارا وحج مرتين أو ثلاث مرات ..

أذكر أنه من أكثر لحظات الفرحة التى عاشها أبى كانت فى ١٩٨٤ عندما حصلت على درجة الدكتوراه فى الأدب الإنجليزى من كلية الآداب بجامعة القاهرة . حضر هو المناقشة وفرح فرحة لا توصف . وفرح كذلك عندما حصلت على درجة أستاذ مساعد . كم كنت أتمنى أن يعيش حتى يرانى أستاذة بالجامعة . كان يقول إن الأب وأولاده جزء واحد لايتجزأ ، وإن سألته مرة إن كان غاضبا على لسبب ما كان يرد قائلا : « كيف أغضب منك إن كنت جزءاً منى » ؟ ..

* * *

أما بداية نهاية حياة أبي فبدأت حقيقة في اليوم الذى بدأ يمتنع فيه عن الخروج للشارع بسبب آلام ركبتيه وكان ذلك – كما ذكرت – في شهر ديسمبر من عام ١٩٩٢ وكان قد عاد في ذلك اليوم من أحد اجتماعات المجمع اللغوى ماشيا وحده على قدميه ويشعر بآلام شديدة . بعد ذلك بدأ يعتذر عن عدم حضور الجلسات في كل من المجمع والمجلس الأعلى للصحافة والمجلس الأعلى للثقافة ، أما مقالات أكتوبر فكان يكتبها في البيت ويلتزم بكتابتها مثل التلميذ نحو مذاكرته .

حكايات بيتنا كانت كثيرة وبيت أبي كان دائما عامرًا بصوته وروحه ، فكان له وجود قوى أينما تواجد وكان لديه أحساس قوى بالفكاهة فكان كثير « الهزار » الخفيف غير الجارح ، وجلساته كان لا يمل منها أحد وكانت لديه صفة محببة عند كل الناس وهو أنه كان يستمع لمن يكلمه . إنني لم أبالغ في كل ماتحدثت عنه في هذه الصفحات بخصوص أبي فهناك الكثيرون ممن عاملوه وعرفوه يشهدون بصحة كلامي هذا . لا أذكر أنه أساء لأحد في حياته فعاش خيرا دائما . وكان في آخر ثلاث سنوات من عمره يعمل على مكتب في الصباح وأصبح يجالسنا بعد الظهر فنتكلم أو أقرأ له شيئا أو نشاهد التليفزيون . وبدأ جسده يضعف بالتدريج شهرًا بعد شهر .. وبمرور الزمن أصبح يحتاج المساعدة أكثر من أمى ..

أذكر أنه كانت هناك أيام يجلس فيها على مكتبه لكى يكتب ويمسك بالقلم — وهو صديق عمره الوفى — ثم يقع القلم من بين أصابعه لضعفه الجسمانى الشديد . كان فى مثل هذه الأوقات يطلب أن نساعده ليقوم من على المكتب قائلا : « معلهش . غدا إن شاء الله أحاول ثانية » . وكان يحاول بالفعل وينجح فى كتابة ما فى ذهنه . واستمر يكتب حتى آخر أيام حياته ..

وأذكر أن مقالاته فى أكتوبر استمرت تنشر لمدة ستة أسابيع بعد وفاته (انظر مجلة أكتوبر عدد ١٠٢٠) ويرجع الفضل فى ذلك إلى رئيس تحرير المجلة الذى أصر على ذلك . وعندما قرأت هذه المقالات الأخيرة فهمت أنها بمثابة الوصايا التى يخلفها أبى لقرائه فكانت كلها عن الإسلام واعتبره مرة عقيدة ومرة أخرى حبا ومرة ثالثة عملا . ثم أذكر آخر جملة فى هذه المقالات وكانت : « وها نحن أولاء اليوم نحن المصريين نبلغ بالإسلام رياسة العالمين العربى والإسلامى . فالإسلام فى ذاته حضارة ، وبفضل الإسلام تستمر عظمة مصر وقوتها وقيادتها للحضارة العالمية » . ورغم تقديره العظيم للإسلام كان يحترم جميع الأديان ويحب أن يكون الإنسان مؤمنا أيا كان دينه ..

أذكر أننى سألته مرة فى السنوات الأخيرة ما رأيه فى العلمانية بالنسبة لبلد مثل مصر .فقال : « رأيى أن مصر يجب أن تكون

إسلامية لأن الإسلام هو قوتها . انظرى ماحدث لتركيا » . فكرت في تركيا وحالها اليوم فهو بلد محترم ولكنه بلد فقد سماته القومية ولم يعد ينتمى إلى الشرق - إلا جغرافيا - ولا للغرب . تذكرت ماقرأته عن معاملة الأتراك فى بلاد أوربية مثل ألمانيا وخفت على مصر بلدنا . أرجو أن تظل كما هى عربية إسلامية وأن يبتعد عنها ذلك الإسلام السياسى المتطرف الذى لسنا فى حاجة إليه ، وأن يبقى الإسلام العقلانى المستنير الذى يكون هيكلا عظيما تتماسك مصر بداخله وتستمد منه قوتها ..

المهم ، أذكر أن فى هذه السنوات الثلاث وبالذات فى السنة الأخيرة من عمره كانت أمى تستيقظ قبيل الفجر - فى حوالى الثالثة صباحا - حتى تقوم بكل أعمال البيت قبل أن يصحوا أبى من النوم فى حوالى السابعة صباحا . كانت تريد أن تكرس اليوم كله لمساعدته إذا احتاج لشىء منها . وكنت كثيرا أقول لها أن هذا تعب كثير عليك فكانت تقول : « إن أباك تحملنى طول عمره ودللنى وأحبنى وأعطانى الكثير جدًّا واحترمنى حقيقة طوال زواجى منه وجاء الدور على أن أعيد إليه بعض هذه الأفضال العديدة . وأنا سعيدة بما أقوم به من أجله » . وكنا لا نتركه وحده أبدا فإن خرجت هى أبقى أنا فى البيت وإن خرجت أنا فلا تتحرك هى من جواره . أما أنا فكان حزنى على أبى قد بدأ

في هذه الفترة وكان حزنا مستمرا كنت أشعر أنني أحيانا لا أستطيع مقاومته فأحاول أن أهرب من هذا الشعور عن طريق العمل أو تجنب التفكير فيه تماما . فلم أستطع تصور الحياة بدون وجوده فيها ؛ ثم إنني كنت أعرف كم كان يعشق الحياة بكل معانيها ، ولكنه لم يشكو من حاله أبداً .

وأذكر أنني كنت أقول له : « عدني بأنك ستعيش طويلا فصراحة لا أتصور الحياة بدون وجودك » فكان يرد قائلا : « عديني أنت بأنك ستعيشين من بعدى وأنك ستصممين على أن تكوني سعيدة وأعلم أن ربك سيأخذ دائما بيدك » .

وحدث أنه قبل ثلاثة أيام من رحيله قال في الصباح إنه يريد أن يبقى في فراشه ليستريح لتعب عام يشعر به . ومرّ النهار هادئا وداعبته وقلت « كيف تترك مكتبك بدون أن تجلس عليه يوما كاملا ؟ » فابتسم ابتسامته المعتادة ولكنه كان قليل الكلام جداً .

أما في اليوم التالي فقال لي إنه يريد البقاء في الفراش أيضا وعندما عدت من عملي في الجامعة في العصر — وكنا نرصد درجات الفصل الدراسي الأول وكان من الصعب أن أتخلف عن مجموعة عملي — قالت لي أمي أنه لا يرد أن يأكل .. ولم يشرب شيئا طوال النهار . وعندما سألته عن حاله قال إنه « كويس » ولكنه يشعر ببعض الضعف العام . كنت أنظر إليه ويهيأ إلىّ أنه كالشمعة التي تنطفيء بالتدريج وأذكر أنني في هذه الليلة بالذات

لم يكن نومى هادئا كالعادة فأكثر من مرة صحوت من النوم ونظرت إلى صالة صغيرة تفصل بين حجرة نومى وحجرة نوم أبى وأمى . وكنت أعرف أنه عندما كان يشعر بقلق خلال الليل كان يشعل « أباجورة » بجوار سريره فكان ضوؤها ينعكس فى هذه الصالة فأعلم أنه صاح . ولكن لم يحدث هذا فى تلك الليلة .

وفى الصباح قبل السابعة — صحوت وذهبت إلى غرفته فوجدته يتنفس سريعا جدًا .وكأن فى صدره بلغما لا يستطيع أن يخرجه وقالت لى أمى : « الآن يستريح فليس به شىء » .. وكنت لم أره فى مثل هذه الحالة من قبل . وطلبت بسرعة أطباء أصدقاء يرشدوننى عما أفعل وكلما عدت إلى غرفته أجده فى نفس الحال . فأتت أمى مسرعة ورائى وقالت « الحمد لله أهوه نام ليستريح » . فعدت بسرعة ووجدت أن التنفس السريع قد انقطع وأن يده دافئة وكذلك كان وجهه ، ولكن لسبب ما قلت لأمى : « أنه ليس نائما يا أمى . أبى مات » . فقالت : « لا تقولى هذا ، فهو نائم » . قلت : « لا يا أمى ، أبى مات . مات » .

وأذكر أننى لم أندفع فى البكاء بل كان بكاء صامتا هادئا وذلك لأن البكاء الحقيقى كان سيأتى بعد ذلك أى بعد أن خرج جثمانه من البيت .. وبالذات بعد أن دفن . ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر كأن الأرض تلاشت تحت قدمى فلا أشعر بصلابتها عند المشى وكأنها تحولت إلى رمال أو إلى زجاج قد ينكسر مع أى خطوة . أما رد فعل أمى فمن الممكن أن يتصوره فقط من مر على مثل

تجربتها فكانت رفيقته بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان وقلمي لا يطاوعني لوصف رد فعلها كتابة ..

كان منظر أبي هادئًا جدًّا ومستريحًا جدًّا وراضياً جدًّا بل كان يبدو سعيدًا جدًّا . وكان هذا الانطباع قد ملأ الغرفة التي كان يرقد فيها . فذهبت للتليفون لكي أبلغ الأقارب ثم عدت إلى غرفته وأمسكت بمصحف كان بجواره فتحته عشوائيا وفكرت إنني سأقرأ فيه حتى يأتي من كلمتهم تليفونيا . وفتحت المصحف وفتح على جزء من سورة النور اندهشت للمصادفة فكانت حياته كلها نورا في كل من افعاله وأقواله وكتاباته وأفكاره . وبدأت أقرأ ما أمامي : « بسم الله الرحمن الرحيم » ..

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . صدق الله العظيم



أبى مع فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى .

ثم سمعت جرس باب البيت فأنهيت قراءة الآية ووضعت المصحف بجوار رأسه وغطيت وجهه بالملاءة وأنا أشعر أنه راض عن حياته وأنه أتم عمله بالكامل وكانت الغرفة كلها يسودها شعور بالراحة التامة ..

حدثت الوفاة في الثامنة والثلث من صباح يوم الأحد ١٧ مارس ١٩٩٦ .

تمت

ببلوغرافية

قائمة ببلوغرافية بمؤلفات الدكتور حسين مؤنس الواردة في هذه المذكرات ، وهي لا تضم جميع أعماله . تذكر أماكن النشر فقط لو كانت خارج القاهرة .

١ – مؤلفات في التاريخ الإسلامي

– **تاريخ المسلمين في البحر التوسط : الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية (١٩٥١)** الدار المصرية اللبنانية ١٩٩١ .

– ترجمة كتاب **تاريخ الفكر الأندلسي** لانخيل جونثاليث بالنثيا (عن الإسبانية) ١٩٥٥

– **فجر الأندلس . دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية** (١٩٥٩) جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٩٨٥ .

– **رحلة الأندلس . حديث الفردوس الموعود** . الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣ . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٩٨٥ .

– **شيوخ العصر في الأندلس** . المكتبة الثقافية رقم ١٤٦ ، ١٩٦٥ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .

- **تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس . بحث فى المملكة العلمية العربية عن طريق علم واحد فى بلد عربى واحد** . مدريد : مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦٧ . مكتبة مدبولى ١٩٨٦ .

- **نور الدين محمود : سيرة مجاهد صادق . قصة بناء الوحدة العربية الإسلامية لإخراج الصليبيين من الوطن العربى فى القرن السادس الهجرى** . الكويت : وزارة التربية ١٩٧٤ .

- **عالم الإسلام** (١٩٧٥) . الزهراء للإعلام العربى ١٩٨٩ .

- **الحضارة . دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتدهورها** . سلسلة عالم المعرفة رقم ١ . الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ١٩٧٨ .

- ترجمة كتاب **تراث الإسلام** لشاخت بوزورث . (بالاشتراك مع د . إحسان صدقى العمد) فى جزءين . سلسلة عالم المعرفة رقم ١١ و ١٢ . الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٧٨ .

- **معالم تاريخ المغرب والأندلس** . دار المستقبل ، ١٩٨٠

- **ابن بطوطة ورحلاته** . تحقيق ودراسة وتحليل . دار المعارف ١٩٨٠ .

- **المساجد** . سلسلة عالم المعرفة رقم ٣٨ . الكريت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨١ .

- **التاريخ والمؤرخون** . دراسة فى علم التاريخ . دار المعارف ، ١٩٨٤ .

- تحقيق علمى : **الحلة السيراء** ، لابن الأبار (١٩٦٣) . دار المعارف ، ١٩٨٥ .

- تحقيق علمى : **الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة لابن الحسن على بن يوسف الحكيم** . دار الشروق ، ١٩٨٦ .

- **أطلس تاريخ الإسلام** . دار الزهراء للطباعة والنشر ، ١٩٨٧ .

- تحقيق علمى : **الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة لابن الحسن على بن يوسف الحكيم** . دار الشروق ، ١٩٨٦ .

- **أطلس تاريخ الإسلام** . دار الزهراء للطباعة والنشر ، ١٩٨٧ .

- **الإسلام حضارة** . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ .

- **تاريخ قريش . دراسة فى تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة فى تاريخ البشر** . جدة . الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٨ .

- تحقيق علمى : **النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم** لتقى الدين المقريزى . دار المعارف ، ١٩٨٨ .

— **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي** . في مجلدين . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠

— تحقيق علمي : **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر** لمؤلف مجهول . الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٩١ .

— تحقيق علمي : **طبقات الأمم** لصاعد الأندلسي (تحت الطبع بدار المعارف) .

٢ — مؤلفات في التاريخ الحديث

— **مصر ورسالتها . دراسة في خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضاري ورسالتها في الوجود** (١٩٥٥) . مؤسسة دار الشعب ، ١٩٧٦ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ .

— **دراسات في ثورة ١٩١٩** . سلسلة اقرأ رقم ٤١٨ . دار المعارف ، ١٩٧٦ .

— **باشوات وسوبر باشوات . صورة مصر في عصرين** . الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٤ .

— **صور من البطولات العربية والأجنبية** . دار الرشاد ، ١٩٩٣ .

— **جيل الستينيات . جيل وطني قومي موهوب يبني مصر اليوم ومصر الغد** . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

٣ – إسلاميات

– **الإسلام الفاتح** . مكة : مطبوعات رابطة العالم الإسلامى ، ١٩٨٠ . الزهراء للإعلام العربى ، ١٩٨٧ .

– **دراسات فى السيرة النبوية** . الزهراء للإعلام العربى ١٩٨٥ .

– **الربا وخراب الدنيا** . الزهراء للإعلام العربى ، ١٩٨٦ .

– **ظلمات بعضها فوق بعض** . دار المستقبل ، ١٩٨٦ .

– **المرأة فى منظومة الإسلام** . دار الصحوة للنشر ١٩٨٨ .

– **الصحابة من الأنصار** . دار الصحوة للنشر ، ١٩٨٩ .

– **الكعبة المشرفة والاعتداء عليها** . الزهراء للإعلام العربى ، ١٩٩١ .

– **الإسلام فى عشرين آية** . دار الرشاد ، ١٩٩٣ .

– **دستور أمة الإسلام . دراسة فى أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين** . دار الرشاد ١٩٩٣ .

٤ – مؤلفات أدبية

– **أهلا وسهلا** . **رواية مصرية** . الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٨ .

– **الطريق الأبيض** . مسرحية فى ثمانية مشاهد (١٩٦٣) مكتبة النهضة ، ١٩٩٥ .

– ترجمه مسرحية : **ثورة الفلاحين** للوبى دى فيجا (عن الإسبانية) . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .

– **إدارة عموم الزير وقصص أخرى** . دار المعارف ، ١٩٧٥ .

– **أحاديث منتصف الليل** . دار الهلال . كتاب الهلال رقم ٣٢٠ ، ١٩٧٧ . دار الرشاد ، ١٩٩٣ .

– **قصة أبوعوف** . دار المعارف ، ١٩٨٠ .

– **حكايات من أيام زمان** . أربع روايات قصيرة . مكتبة مدبولى ، ١٩٧٨ .

– **المخترع الصغير . حكايات من الأندلس** . فى جزءين . دار المعارف ، ١٩٨٩ .

– **تقاسيم على أنغام من بلدنا . صور صادقة عن مصر وأهلها فى مقالات** . دار المعارف . سلسلة اقرأ رقم ٥٦٨ ، ١٩٩١ .

– **عصر الفتوات . عصر البطولة للمصريين أيام الاحتلال والوزراء والباشوات** ، دار الرشاد ، ١٩٩٣ .

– **الجارية والشاعر** . دار الرشاد ، ١٩٩٣

– **تاريخ موجز للفكر العربى** . دار الرشاد ، ١٩٩٦

– **غدا تولد شمس أخرى** رواية قصيرة . دار الرشاد ١٩٩٦

حتى مصريون ، بل حتى نشبه مصر ، وحتى نستقل عن الطريقة الحمقاء

والمصري يرى أن أقصى درجات الحب هي الموت ، والمصري عندما يريد أن يقول

لحبيبته إنه يحبها بلا حدود قال لها : أحبك موت ، وعندما يريد أن يقول

لحبيبته إنها في غاية الحسن يقول إنه يتأملها أكل ما يحب ، ولهذا فأنا

مصر تموت في .. يريد تحبنا لو ، وحتى نأكل لدننا نحبها ، ونستطيع حبها

عن هذه الطريقة حتى لا تكون هناك مصر ونصير لا حياة في حركة كفت

في عرض البحر كما يحدث في الشيشان ... ومن الذين كثيرون منا رجال

فقراء أو " يموت من " بلا مسكن ولا أحد في مسكن . والمستعمرين

عندنا بالأرض ، ولكن هذا الشاب الراغب في الزواج والسكن حتى هذه

جداً ، وهو إذا لم يكن يستطيع السكن فيها ، فهو يستطيع أن يصعد إلى

الدور السابع من عمره ويجد نفسه من النافذة مجاناً ، وهذا هو الذي يحدث

وجيه من المصريين أن يموت الوفد بهذه الطريقة الشعبية ، وحتى من الحكمة

له أنه يتزوج في حبيبه ويحسن في الطريق بالعلم الحزين من رأسه .

مخطوط بخط د . حسين مؤنس وهو بداية مقال نشر في عدد

« أكتوبر » ٣٢٩ في ١٣ فبراير ١٩٨٣ .

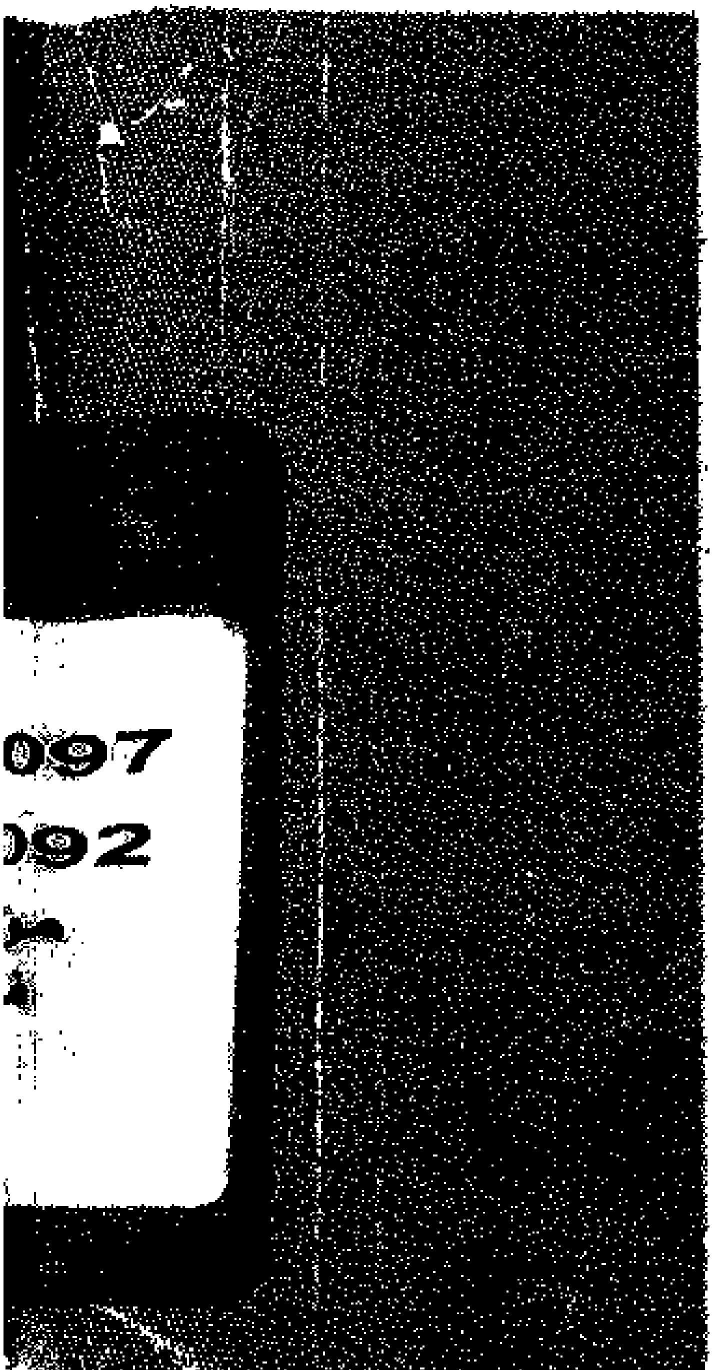
الفهرس

الإهداء	٥
تقديم الأستاذ/ رجب البنا	٧
مقدمة المؤلف	٩
فى بيت حسين مؤنس	١٥
ذكريات أندلسية	٣١
متاعب على الحدود الليبية	٤٤
أيام فى الكويت	٥٦
رحلة بحرية مع الماعز	٦٨
قضية خاسرة	٨٠
فى حراسة والدى	٩٢
بدلة السنيور مؤنس	١٠٤
غيرة جامعية	١١٧
قبل الميعاد دائما	١٣٠
الليلة الأخيرة	١٣٩
أشهر مؤلفاته	١٥١
مخطوط بخط حسين مؤنس	١٥٧

رقم الإيداع		١٩٩٧/٤٥٧٦
الترقيم الدولى	977-2-5412-6	ISBN

١/٩٧/٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



كان الدكتور حسين مؤنس أستاذًا كبيرًا في التاريخ الإسلامي تخرجت على يديه أجيال كثيرة .. كما شغل مراكز جامعية وأدبية عديدة .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا ترجمة صادقة لحياة الدكتور حسين مؤنس ، كزوج وأب وصديق .. خطّه قلم ابنته الدكتورة منى فى أسلوب شيِّق فيَّاض بالمشاعر الراقية ، وبقدرة فائقة على الاسترسال السهل ، وبلغة سلسة كشفت عن الأبعاد الإنسانية الثّرية فى شخصية علم بارز من أعلام الثقافة العربية .

قرش جنيه
٢,٠٠

دار المعارف

٤٠٦٧٧٣/٠١